اعترافات فات أوانها

رواية

مؤمنة محمود

اعترافات فات أوانها

رواية

مؤمنة محمود

تدقيق لغوي

عبد الله راتب النفاخ

رقم الإيداع

٢٠٢٢/٤٥٦٧

الإهداء

إلى ابنتيّ

حينما تواجهان لحظات مؤلمة وعصيبة أغمضا عينيكما وابدأا بالعدّ إلى

ثلاثة

وبعدها افتحاهما ستصبحان أقوى

إلى ابنتيّ

سأفعل كلّ شيء لكي تفخرا بي في المستقبل

إلى ابنتيّ

كونا خير سندٍ لبعضكما فأنتما الحب الذي أخشى ضياعه.

كلمة شكر

شكراً لمن منحني كتفه لأتكئ عليه.

لمن أعطاني عناقه بهجة وسعادة.

لمن مدّ يده وانتشلني قبل الضياع.

لمن وضع قدمه أمامي فعرقل مسيري الخاطئ ثم أخذني من يدي إلى الاتجاه الصحيح.

شكراً لمن عاش معي متأهّباً لفراقٍ طويل فكان خير صديق.

من الفؤاد شكراً لك.

يا عابر السبيل قف قليلاً قبل أن تعبر الذكريات وتعبرني

هلّا مسحتَ على الخدين عبراتٍ قد عبرت وارتسمت.

إلى مالك

سأتفنن في الهروب منك إلى سُبلٍ لا تزورها. تأتي بك مصادفة ماطرة لتنثرك في دربي مهيمناً على ذاتي بأنّك وحدك سالب راحتي وأمانيّ.

خذ بيدي حين أراك في نهاية الدرب الموحش، تنتظرني هناك وحدك، خذني إلى رصيف الحبّ نجلس معاً وتحكي لي حكايا الجدّات. أولستُ أنا بطلة الحكاية ولأجلها كُتبت الرواية.

لا تتركني أتوجّس طريقك فلا تركنّي على رصيف الوحدة أستجدي المارة الفارغون بلوعة الحبّ الأوّل والقبلة الأولى والعطر اللامنسي. لا تتركهم يلملمون شظايا روحي يجرحون بها ويلعنونك ألف مرّة.

عد إلى ذات الدرب واسلك ذات السبل ستجدني على ذات الرصيف بانتظارك لأنّك وحدك ساكني ومسكني، أماني ومأمني، راحتي وروحي.

إلى مالك

ليتني التقيتك قبل وجعك القديم وفقدانك الثقة بالجميع، قبل أن تعرف ما الفقدان وما الخذلان، وقبل أن تفقد شغفك بالحبّ.

هل فات أوان الاعتراف؟

لم لا تتأخر النهاية لساعات قليلة أخرى نتحدّث وعبرات الشجن يطويها الليل الحزين ويغلّفها في سكونٍ.

نريد التحدّث، من حقنا أن نجد كتفاً نتّكئ عليه، أن نبكي فنجد عناقاً حاراً، نحزن فنجد يداً تربت على أوجاعنا. لا نريد من العمر أن يمضي بنا إلى النهاية ونحن مازلنا نفتّش عن الأمان في صفحات حياتنا. وبعدها نبكي عمراً لغيرنا قد كُتب وهم يبكون ندماً لحروف ابتدعوها وكلمات ابتلعوها.

وفي النهاية يصرخون "نحن آسفون لأننا لم نبذل، لم نمدّ يداً، لم نمنحك كتفاً لتستند فوقعت أرضاً ثم اتهمناك بعمى البصيرة"

"نحن آسفون لصمتنا، لتخاذلنا، سرقنا شعلة الاهتمام والحبّ واتهمناك بصمتٍ أخرس قتلك فقتلنا"

" نحن آسفون لأننا لا نملك موهبة الربت على كتفك، فمارسنا موهبة ركل مشاعرك باحترافية عالية دون أن نشعر بأننا مسوقون إلى ندمٍ يأكل عمرنا وينخر قلوبنا"

"آسفون لكوننا مقصّرين وآسفون أيضاً لأنّه غرّنا طول البقاء، ففات أوان الاعتراف".

رنّ الهاتف المحمول رنيناً منخفضاً ثمّ سرعان ما ارتفع الرنين عالياً ليصحو مالك من شروده، هو ليس بنائم وإنما غارقٌ في أفكاره، لم يمضِ سوى ساعتين على الحادثة الغريبة، لم تكن حادثة عادية وإنما بركاناً هادئاً لسنوات وانفجر في لحظة غضب أعمى. كم عدد تلك السنوات التي كان فيها البركان هادئاً لا يثور، ربما عشرون سنة أو واحدٌ وعشرون، مشتت الانتباه فلم يعد يستذكر كم سنة مرّت على هدوئها قبل أن تعلنها ثورة أسكتته وهو الصارخ على الدوام في وجهها وهي الصامتة الهادئة، اثنان وعشرون عاماً مرّت في ألم لها وفي نعيم له.

الحاح المتصل جعل مالكاً يمدّ يده ليسحب هاتفه من على الطاولة فأوقع الكأس أرضاً وأحدث ارتطاماً عالياً قبل أن يتحوّل إلى ذرّات صغيرة يصعب الوصول إليها. نظر إليها ببلاهة وهو يحادث نفسه " ما قصة الكؤوس المهشّمة لهذه الليلة؟" لم يعر القطع الصغيرة المكسورة أيّ انتباه

وكأنّه انتقم من الكأس بدلاً من ذاك الذي كسرته هي. عاد الهاتف إلى الرنين مجدداً وهو ماثلٌ بين يديه. إنه رقم غريب غير مسجّل لديه، ربّما تكون هي طالبة منه العفو والمغفرة. ردّ أخيراً على المتصل اللحوح.

- من معي؟
- عفواً... أهذا هو رقم السيّد مالك؟
- أجل... ماذا تريد؟
- زوجتك السيدة رجاء قد جاءت إلى المشفى الوطني إثر حادث سيّارة وهي الآن فاقدة الوعي في غرفة العناية المشدّدة.

سكت مالك مصدوماً مشدوهاً، فقطع صمته ذاك نذير الشؤم وهو يحثّه على القدوم بأسرع وقت.

- هيّا تعالَ بأسرع ما يمكنك.

وقع الهاتف من يده وصرخ في فزعٍ، غطّى وجهه بكلتا يديه.

- ألو..... ألو.... سيد مالك.... هل أنت بخير؟.... ألو ...

وانقطع الاتصال.

نهض من فراشه متّجهاً إلى الخزانة توقّف أمام المرآة القابعة على باب الخزانة نظر إلى وجهه يفكّر فيما سمعه للتو، ماذا عليه أن يفعل الآن؟ وأين يذهب في منتصف الليل؟ لقد كان في كلّ أمر يأتيه يهرول إليها ويدفن وجهه في حضنها فتخبره بما عليه فعله. لديها حلول لكل المشاكل التي تأتيه، لكنها اليوم هي المعضلة فمن أين يأتي بالحل؟ إلى أين يذهب وكل الطرق مغلقة في وجهه؟

ارتدى ثيابه على عجل، يا له من أحمق لقد ارتدى البنطال بشكلٍ خاطئ فأضحى شكله مضحكاً، هو دائماً هكذا متسرّع في كلّ شيء ولا يعرف كيف يتصرّف وحده. كصبي صغير.

في لحظةٍ واحدة أطفأ الكون نوره في عينيه، وتلاشت السماء والأرض أمامه، ولم يبق سوى اللونين الرمادي والأسود حتى الأبيض ما عاد له وجود.

دخل غرفة ابنه ماجد ليطمئنّ إن كان قد نام أو لا. لكنه وجده واقفاً أمام النافذة ينظر إلى السماء وهي مكفهرّة الوجه. استدار إلى والده يستفهم بعقله عن والدته ثمّ قال باستفهام واضح:

- ما بك.

نظر إليه مالك بارتباك، ظهر على وجهه وأدركه على الفور ماجد. فقطع ماجد لحظة الارتباك هذه حين سأله:

- هل حصل لها مكروه؟ هل أصابها شيء ما؟
- لا... لم يحصل لها شيء. هي عند صديقتها نجوى. سأذهب لإحضارها الآن.
- ولكن الآن منتصف الليل، اتركها تبيت هناك وفي الغد الباكر تذهب إليها.
- لا يجوز أن تبيت خارج البيت، لا تقلق سأذهب الآن وإن احتجتَ شيئاً فاتصل بي. لا تخرج من البيت وابق بجانب أختك.

وخرج مسرعاً بعد أن تركه في ملحمة كبرى لا يعرف ما يدور في رحاها، لا يصدّق والده، فمن المؤكّد بأن هناك شيئاً كبيراً قد حصل وإلّا ما كان بهذا الارتباك والخوف.

أغلق باب البيت خلفه بسرعة وهبط إلى الدرج مسرعاً وحين وصل إلى سيارته لم يجد المفتاح في جيب سترته، أنّه في جيب الجاكيت البني الداكن، لا، ربما كان على الطاولة بجانب السرير، هذه الليلة متى ستنجلي لينتهي من كلّ ما يعرقل طريقه، صعد إلى البيت وطرق الباب طرقاتٍ عنيفة، فتح له ابنه ونظر يتأمّل والده وقبل أن يسأله عن السبب الذي أعاده أزاحه وهو يتمتم يسأله عن المفتاح ويهرب من نظرات ولده، لا يريد أن يلمح في عينيه والدته وهي تحتضر، تحتضر!

أليست هذه الكلمة غريبة قليلاً فهو لم يذهب بعد؟ ولم يعرف إن كانت تحتضر أم أنها حادثة بسيطة ستقوم بعدها وتجلس على ذات الأريكة في بيته الكبير، ربّما مجرّد كسور وخدوشٍ بسيطة فلا يجب عليه أن يهوّل الأمر كثيراً. وجد المفاتيح على الطاولة التقطها بسرعة وهرب خارج

البيت قبل أن يبادره ماجد بأسئلة كثيرة، وقبل أن يجيب على هذه الأسئلة التي ظهرت من خلال ارتباكه.

ركب السيارة وانطلق بسرعة الغيم الراقد في سمائه، انطلق إلى مكان منكوب بداخله امرأة في منتصف الأربعين من العمر على سريرٍ أبيض، غائبة عن الوعي.

لا يريد في هذه اللحظة بالذات أن ينكسر فهي تريد قوّته الآن، لا يرغب بانطفاء عزمه في آخر المضمار، كان يقاوم رياح العمر بأكمله، أتهدّه نسمة الآن؟

شقّت السيارة نفسها في ليلٍ مظلمٍ بارد، وبعد أن أوصلته بقيت وحدها تحت ستار ليلٍ ملبّد بغيوم سواء تمهّد الطريق لمطرٍ لن يكون رحيماً.

صعد درجات المشفى وهو يبحث عنها بعينيه الكبيرتين عن غرفة كُتب عليها (العناية المشددة) وصل إليها بعد عناءٍ طويل، إذ سأل كافة الممرضات اللائي التقاهنّ في الممرات الضيقة فلم يكن هناك أحدٌ من الموظفين في ردهة الاستقبال.

وقف أمام الغرفة يلهث من تعبه وبعد ثوانٍ أدار مقبض الباب، لكن هناك يد أنثويّة رقيقة منعته من الدخول قائلة بحزم " بعد قليلٍ ستُنقل إلى غرفةٍ أخرى ولكن هنا يُمنع الدخول لأيّ شخص".

استند بجذعه على الجدار الأبيض ووضع رأسه كلّه بين يديه يحاول أن يتذكّر ما حدث، ولم زوجته ترقد هنا؟ ما الذي فعلته رجاء لتعاقب هكذا؟ وما الذي فعله هو ليعاقب بفقدانها؟

آه... آه... لقد فعل الكثير لها ولم يترك شيئاً ليفعله، وكلّ ذلك بسبب علمه الدائم أنها موجودة على الدوام في محيط حياته، لن تتركه فهي بلا مأوى وإخوتها تخلّوا عنها لذلك كان دائم الهروب منها والعودة إليها حين ينفد رصيده من حبّ الأخريات له، يعود كما يشاء ويرغب ويرحل متى أرادت غريزته الجنسية أن يرحل.

ولكن لماذا يتحدّث عن فقدانها، أيضاً هذه الكلمة لا يجب أن تقال الآن لأن الوضع لم يحتّم أن يفقدها مازلنا في طور البداية، والبداية يعقبها أسطر كثيرة منها ما يحمل الفرح ومنها ما يحمل الحزن والنصيب لكلمة الخاتمة.

- غائبة عن الوعي.
- إلى الآن لم تستيقظ.
- مازالت غائبة عن الوعي.
- يا سيد يُمنع التدخين هنا.
- ستنتقل إلى غرفةٍ أخرى.
- لا تعلم متى ستفيق.

- يا سيد قلنا لك ممنوع هنا التدخين.

عشرين مرّة تكررت هذه العبارات ووصلت أذنه ولكن لم تصل إلى أذنه عبارة (الحمد لله على سلامتها)، أعاد علبة التبغ إلى جيب قميصه للمرّة السادسة على التوالي بعد أن لمحهم وهم ينقلونها على سريرٍ متحرّك ذي ملاءات بيضاء لغرفة أخرى.

حمد ربّه لأن الترحيل كان من غرفة إلى أخرى أفضل بكثير من ترحالٍ لا يراها بعده أبداً، الآن هو يستطيع أن يراها ويجلس بجوارها لوقتٍ طويل وبإمكانه التشبّث بيدها الباردة.

دخل الغرفة ببطء وهو خائف مما ستكتبه الحياة في دفتر أيامه، لا يريد أن يكون خطّها رائعا ولكن يريد أن تترك له الحياة شيئاً يستحق القراءة، لا شيء يخاف من قراءته ويهرب منه ويخشى الولوج فيه، دخل بقلبٍ منفطر منكّس الرأس بالكاد تجرّه قدماه إلى سريرها، يداه تعبثان في جيب بنطاله. انتظر كي تنهي الممرضة من وضع اللمسات الأخيرة بغرفة مريضته، فهي امرأته ومريضته أيضاً. ابتسمت له الممرضة ابتسامة صغيرة وغادرت للتو، ربّما كانت تنتظر منه أن يمنحها القليل من النقود لقاء

تجهيزها لغرفة زوجته لكنّه لم يفكّر بذلك فعقله مشغول برجاء، لم يفكّر بها كأنثى وهو الذي يتمايل طرباً حين يرى سيقان أيّة أنثى تسير أمامه، الآن لن يعير النساء أهميّة لأن التي ترقد أمامه مغمضة العينين لهي أروع النساء. لكن، مهلاً لنتوقّف قليلاً هنا، متى حدث ذلك؟ أقبل الحادث؟ أم بعده؟

خرج من غرفتها وتوجّه إلى حديقة المشفى يريد أن يصبّ جام غضبه على علبة التبغ سيجارة تلو الأخرى ينتهي دورها ليهرسها تحت حذائه وتتحول بعدها إلى ذرات صغيرة من النيكوتين. نفث دخانها عالياً في سماء المدينة فامتزج الدخان مع أدخنة السيارات وطارت بها الريح لفضاءٍ آخر.

كانت كنجمة صغيرة وقعت في حب قمرٍ متوهّج ومن كثرة توهّجه لم يلحظ توهجها الصغير. عاشت عمرها بأكمله تحاول جذب انتباهه إليها ولكن ما عساه يفعل إن كان حوله نجوم مشعّات أكثر منها بهاء، وظلّت هي النجمة الصغيرة البعيدة حتى انطفأ لمعانها وما عادت تطلب من القمر نوراً يضيئها، ففضّلت الاتحاد مع عتمة الليل وغابت معه ولم يلمحها القمر من وقتها، فتذكّرها في ليلة صيفية هادئة وسأل عنها صديقاته المقرّبات

"أرأيتموها؟" أجبن بنفي قاطع، ومن منهنّ لمحت نجمة صغيرة كان أملها عشق القمر لها.

انتهى من ذلك بعد أن ناشدته علبة التبغ أن يتركها وشأنها، فقد فرغت ولا مجال لأن تولد من جديد، فكان جزاؤها أن رماها هي الأخرى في الهواء لتحملها الريح فتلعب بها قليلاً قبل أن تسقطها في تقاطع طرق.

عاد إليها... إلى من كانت قبل بضع ساعات زوجته وأم ولديه، يا له من أحمق هي لم تمت وربما لن تموت، لماذا يجلب النحس السيء بأفكاره هذه.

جلس على كرسي بجانب سريرها الأبيض وهو يتأمّل شعرها الطويل، مازالت الجديلة منسابة على كتفها وعينيها الرماديتين الغائبتين... ما أجملهما! الآن فقط اشتاق إليهما.

مرّ من أمامه شريط ذكرياته معها بحلوه ومرّه بفرحه ونكده، كم مرّة خانها ولعب بمشاعرها؟ كم مرّة استهزأ بكرامتها وسخر من حبّها؟ وها هي الآن ترقد أمامه صامتة بكماء كعادتها لا تعي أين هي؟ هل ستنجو

ويطلب منها المغفرة؟ ستنجو بالتأكيد فلا داعي للأفكار السلبية أن تسيطر على عقله، ولكن إن نجت فهل ستغفر ما أجرمه بحقّ قلبها؟

هوت دمعة من عينيه السوداء إلى يدها البيضاء، مسحها خشية أن تستيقظ الآن وترى ضعفه وهشاشته وهو الرجل ذو القلب القاسي والذي لا يلين مهما حدث. لكن الآن فالأمر مختلف عما كان عليه من قبل، هنا أنثى ترقد على سريرٍ أبيض مغمضة العينين، ربّما يصادفها الحظ فتُكتب لها حياة جديدة وربما قد لا يسعفها الحظ فتموت، وتُنسى كما عاشت معه العمر بأكمله على هامش حياته منسيّة.

هي أنثى بمرتبة زوجة عاشت معه سنين عديدة بحلو الحياة ومرّها، سنون كثيرة مرّت لم يحاول إسعادها فيها بالعكس كان سبب تعاستها.

اليوم الذي ناقش وإياها قرار الانفصال تغادره بهذه الطريقة، لماذا لم تختر طريقة أكثر تحضّرا ورقيّاً من هذه الغرفة الباردة، لم يكن نقاشاً بل كان حرباً ابتدأها هو منذ أعوام لتنهيها هي على طريقتها، هو لم يتناقش معها بشيء بل فضّل الصمت الذي استعاره منها ريثما تنتهي ثورتها المجنونة ولكن الثورة أعقبها زلزال مازالت آثاره باقية هنا في هذا المكان.

هي لم تغادر بعد، مازال هناك أمل لعودتها إلى بيته ضاحكة كعادتها، صامتة ومبتسمة، من المحتمل أن لا ترغب هي بالانفصال إذ حاولت قبل ذلك بطرق شتّى أن لا تهدم بيتاً هو مسكنها لكنّه كان مصرّاً على تدميره. اليوم هي يئست من كلّ شيء وصاحت بملء فيها وهي ترتدي ثوبها على عجلٍ (أن لا حياة لها في هذا البيت بعد الآن) أي ثوبٍ هذا الذي ارتدته ألم يخبرها مراراً ألا ترتديه فهو قصير ويرسم جسدها بشكلٍ مثير ولكنّها ارتدته لتخبره بأن لا حياة معك ولستَ مسؤولاً عمّا أرتديه، وكأنّها تغيظه لتفجّر الوحش في أعماقه الذي ظلّ ساكناً يقاوم زفرات الغضب التي تطلّ من عينيه، صدقت فيما قالته فلم تعد إلى البيت وربما لا تعود، خرجت دون أن يُمسك بتلابيب ثوبها كعادته، دون أن يسارع لاحتضانها كما عادته ريثما تهدأ ساعة جنونها. هذه المرّة كان هو من قرر الانفصال لذلك صمتَ دون مراعاة لمشاعرها وتركها تصفق الباب خلفها بغضب. ولكن الآن لا يريد الانفصال يريد لها البقاء العمر بأكمله ولن يخطئ في حياته مجدّداً، أصادق هو؟ أم كاذب؟

قبل ساعتين من الحادثة، تقريباً في العاشرة إلا ربع مساءً.

نظرات قصيرة تبادلها مالك مع ماجد ورزان، ثم اتجه إلى غرفته، فقطع لحظة الصمت ماجد حين سأله:

- إلى أين هي ذاهبة في هذا الوقت؟
- لا أدري، اذهب وراءها وستعرف إلى أين هي ذاهبة.

دخل غرفته وأغلقها بالمفتاح قبل أن يقتحم ماجد برجه العاجي ويسأله عشرات الأسئلة عن (ماذا حصل؟ ولماذا؟ وأين رحلت والدته الآن؟) ركض ماجد خلفها ولكنه كان قد تأخر قليلاً فلم يلحق بها، كانت هي الأسرع وحاول الاتصال بها فلم تجب، وسرعان ما أغلقت هاتفها وكأنّها تنفي نفسها من حياتهم ومن بيتهم.

استلقى مالك على سريره وهو يدرك أن لا وجهة لها سوى بيته، يعرف أنها ستعود إليه بعد أن تزحف إلى كل الشوارع كعادتها في الهرب من المشاكل التي باتت تحصل كثيراً. تتعبها قدماها ثمّ تعود ذليلة إلى سريره

صامتة منكسرة وفي عينيها دموع ميّتة، وفي قلبها سهام قد زُرعت وعلى شفاهها ارتسم صمتٌ حزين.

حين رفضته الأماكن والأشياء والأحلام احتوته هي، وحين احتوته بسكون فتعلّقت به رغماً عنها وحين أصبح في أمانٍ رفضها هو.

استلقى على صدى رحيلها الغاضب ونهض مبهوتاً لوجودها في قسم الحوادث في مشفى كبيرٍ يعجّ بالمرضى وزائريهم.

نظر إلى عينيها المخبّأتين تحت جفنيها وناداها بصوتٍ حنون:

- رجاء... رجاااااء.. هل تصغين إلي؟ كنتِ دائمة الإصغاء إلى ما أقول وكنت أهرب مما تقولين. أريدك الآن أيضاً أن تصغي إلى أحاديثي الطويلة. لا أريد منك الآن شيئاً سوى استعمال حاسة سمعك المرهفة التي دائماً ما كنتِ تستعملينها حين أحاور إحداهنّ على الهاتف. حينها كنت أكذب عليك وأخبرك بأن صديقي يحادثني. تنظرين إليّ تلك النظرة الماكرة وتبتسمين وتصدّقين وربّما تتظاهري بتصديقي كي تحافظي على ما تبقّى مني لك، اعتذر الآن، كنتُ دائم الكذب عليك لأنني ذو أخطاء متعاقبة.

اعتذاري هذا الذي جاء متأخّراً هل بإمكانك قبوله والصفح عنّي؟ صديقي لم يحادثني في الليل، صديقتي هي من تفعل ذلك فكانت تمنحي كلّ ما أرغبه بقلبٍ راضٍ فهي مثلك كريمة في كلّ شيء لذلك استغنيت عنك وعنها وكنتُ دائم البحث عن أنثى تمنحني القليل لأهبها الكثير لأكون الخادم لها والعبد الذليل تحت قدميها وحين وجدتها وقابلتها قارنتها بينك وبينها فكانت الأشهى في كل شيء. فجسدها ممتلئ على خلاف جسدك الغضّ والهزيل وهي ماهرة في الجنس على خلافك يا عزيزتي، وبالرغم من مرور السنين معاً إلا أنك لستِ بمهارتها.

اليوم بالذات أستطيع مصارحتك في كلّ شيء ترغبينه، سأصارحكِ بأشياء حلمت بها تخرج من فمي، سأخرجها الآن وسأعترف لكِ بجرائمي بحقّك والتي رفض القانون الحكم بها، فكوني القاضي والجلّاد وسأكون المتّهم ولكنني أرفض أن تكون الضحيّة هي القاضي والجلاد، فحكمك حينها سيكون قاسياً كقسوة فبراير. لم أتوقّع أن تصدري الحكم بهذه القوة فتغيبي عن ساحتي التي اعتدت وقع أقدامك عليها كما اعتدتُ على ابتسامتك الدائمة.

صمتك مخيف كصمت نسمة تعبر الأجواء فتتحول إلى ريح صاخبة حين لم ينتبه لها الكون ولم يصغي لصمتها الشجر.

ابتلع ريقه ثم وقف يبحث عن الماء لعلّه يرتشف قليلاً منه فيروي ظمأه، وجد الإبريق يتموضع على الطاولة بجوار سريرها، سكب القليل من الماء وارتشفه دفعة واحدة، كان الماء ساخن وكأنّه هنا قبل قرنٍ ونيف فلم يعجبه المذاق ولكن ما عساه يفعل.

وقف خلف الكرسي وأمسكه بيديه الاثنتين وصاح بصوتٍ مرتجف:

- أفيقي يا رجاء، وعدٌ مني أن أكون كما ترغبين، سأكون الزوج والحبيب ولكن لا تحرقيني بنار الندم ولا تدعيها تحرق أضلعي.

سكتَ قليلاً ثم مسح دمعته الهاربة من جحيم الذكريات ونظر إلى الأجهزة المتصلة بجسدها، عاد وجلس على الكرسي وشبك أصابعه ثم قال لها بصوتٍ هادئ يشوبه الحزن وبغصّة فيها الألم كما فيها الندم:

- أعترف لكِ واعترافي جاء متأخّراً كثيراً، أعترف بخياناتي الكثيرة لكِ مع علمكِ بها وكان لديكِ الحقّ في كرهي، لكنّك حين كنتِ تواجهين خيانتي

علناً كنتِ تفضّلين الصمت على العتاب، لديك كلّ الحق في الصراخ بوجهي، بالبكاء والنواح والعويل، اعتبرتك حينها أنثى نكديّة وهربت منك بضمير حيّ إلى أخريات ثم إلى أخريات فوجدتُ عندهن السلوان والعزاء لذاتي المريضة. وحين أردتِ الهروب مني لم احتمل ذلك ووصفتكِ بأبشع الألفاظ كي نحافظ على بيتنا من دمارٍ يطاله بسببك. اتهمتك بالأنانية حينها، رأيتك وقد وقفتِ حائرة تنظرين إليّ، لا تعرفين ما تقولين ولم تعرفي كيف تدافعين عن نفسك، ومن هنا بدأ صمتك وابتعادك عني، حينها انهمرت دموعك فأحرقت وجنتيكِ ولم تحرقني ولم تثر فيَّ مشاعر حبٍّ لكِ.

سكتَ ليسمع قطرات المطر وهي تطرق زجاج الغرفة وكأنّها تريد تحطيمه، ألا يكفيه من زجاج اليوم ما تحطّم بسببها. استدار إلى النافذة وتوجّه إليها وكتب على بخارها (أنا آسف) هل حقاً يعي هذه الكلمة الآن؟

كانت ليلة فبراير مجنونة تريد اقتحام غرفته لتأخذه فتحرره من اعترافات ثقيلة عليه ما كان ليعترف بها لولا وقوعها في هذا الحادث الغامض.

الآن يريد الاعتراف لها ليطلب منها المغفرة، في هذه الساعة الثانية عشرة في منتصف الليل يقف مالك وظهره إلى زوجته كي لا تلمح دموع القلب تلهب وجنتيه، عيناه تشاهدان قطرات فبراير وقد انسكبت بغزارة لتؤلم مالكاً وما فعله بحقّ رجاء. بعد اثنين وعشرين عاماً يعترف مالك ولأول مرة بما فعله بقلبها. الآن وفي بداية عامه الخمسين يقف أمامها كالذليل يبكي معترفاً بما أقدم عليه وهو بكامل وعيه وضميره. أكمل بنبرة هادئة خجولة:

- سامحيني ولا تسأليني لمَاذا؟ لأنني لا أعرف الجواب. سأسكت كما كلّ مرّة تكتشفين خيانة جديدة، كنتُ حينها اتّهمك بالثرثرة والكذب ومحاولاتك العديدة للهروب دون مبررات.

صمتَ قليلاً وهو يطمئنّ بأنّها لن تثور عليه هذه الليلة، ستبقى صامتة هادئة كهدوء ليلة صيفية مليئة بحكايا لا تروى. عاد ليكمل ما لم تسمعه من قبل:

- أتذكّر ليلة زواجنا، كانت قبل اثنين وعشرين عاماً في الرابع من أغسطس، أتذكرها كما لو حدثت الآن، كنتِ جميلة بشكلٍ لافت للانتباه، جميلة بصورة خاصة وكأنّك لوحة مرسومة بريشة فنان عاشق، لا أستطيع شرح ذلك بالمفردات، شبّهتك حينها... أتذكر ذلك، لم أخبرك حينها بماذا شبهتك كبيت شعرٍ جميل يهرب من المترجم، نعم كنتِ كذلك حينها لأن عيني كانت على بيوت شعرٍ أقلّ جمالاً منك.

في كلّ عام في الرابع من أغسطس كنتِ تتعطّرين وترتدين أجمل الثياب التي تبتاعينها ليومٍ كهذا، تعشقين رائحة الياسمين فتستحمين بعطره والذي كنتُ أجلبهُ لك في كلّ مرّة أخونكِ فيها، وتكتشفين ذلك لاحقاً حتى صرتِ تعدّين كم واحدة لديكِ وأنت تبتسمين لي في مكر بأنك تعرفين اللعبة وأنك منقادة لها بإرادتك الحرّة. ولكن ألا تدركين بأن ضميري حيّ يا عزيزتي، فبرغم هروبي منكِ لأخريات إلا أنني لم أقصّر في حقّكِ يوماً، فكنتُ دائم الفرار إليكِ حين تفرّ إحداهن من بين أصابعي، فألعن النساء قاطبة وأعود إلى أحضانك خائباً منكسراً مقراً بهزيمتي الجديدة ومعترفاً بإخلاصك لي.

لنعد إلى تلك الليلة _ليلة فرحي وانكسارك_ أعود لأخبرك بأنك كنتِ جميلة كفتيات المجلّات ولا أخفي ذلك ولا أنكره، ولكن قلبي كان لغيرك ولا سلطة لي على القلب الذبيح. حبي لغيرك حلال وحبي لك حرام.

أحببتها فوهبتها عمري وحبي وإخلاصي، فوهبتنا الحياة وجعاً لا يطاق، وحمّلتنا آلاماً لم نستطع الصبر عليها، النصيب أبى أن يجمعنا معاً وبعد أن كانت تغفو على صوتي صرتُ أبحث عن صوتها بين الأصوات لأغفو.

في ذات ليلة مجنونة كهذه الليلة، لماذا لا تحدث الآلام إلا في الليالي المجنونة؟ كان ذاك في نهاية يناير حيث تشاجرنا مشاجرة عنيفة أفضت إلى رحيلٍ بدورها وهجر بدوري. رحلنا ومشينا في طريقين متجانسين، طريقي لا يفضي إلى بيتها وطريقها مليء بالكبرياء، انتظرتُ منها رسالة اعتذار بحقّ رجولتي وانتظرت هي رسالة اعتذار بحقّ أنوثتها وما بين انتظار الرسالتين تفرّقنا ومضى كلّ نصف في طريق، في قلبي كان يشعّ الحزن وفي عينيّ انسكبت الدموع ولكن الكبرياء وما أقساه كان الطرف الأعند بيننا. خمسة أشهر لم أسمع عنها خبراً واحداً ولم أتلقّ منها رسالة

صغيرة ولم تصل إلى هاتفي منها رنّة قصيرة وكأنني ما كنتُ أمير حياتها. قررتُ الانتقام منها بخطبة ثمّ زواج وأطفال ولتبقى هي في كبريائها ما دامت في هذا العند والغرور. ربّما تأتيني راكعة متوسّلة وإلى أحضاني مرتمية، لكن كبرياءها فاق كل حدود وتبّاً لغبائها. وهذا ما حصل، تقدّمتُ لخطبتك وكنتُ لا أعرفك لكن أمي أشادت بمواصفاتك الرائعة ومنبتك الحسن، وبالفعل وجدتُ لديك ما سمعته وما عرفته عنك من جمالٍ في طباعك وأخلاقك. هرعتُ إليكِ خاطباً وبعدها أصبحتُ في شهرٍ واحد زوجاً لكِ، دام زواجنا إلى الآن اثنين وعشرين عاماً ومرّت جميعها كليلة واحدة بالنسبة لي.

في تلك الليلة وفي ليلة زفافنا فاجأتني رسالة طويلة تبارك لي بدموعٍ من عذاب وأحرف العتاب تخترق حنجرة الصمت. (لم يكن وداعاً لائقاً بما عشناه من سنين حبٍّ) أأعودُ إليها فأضمّها وأعتذر؟ هكذا فكّرت في البداية ولكن ما ذنب صبيّة صغيرة تغزل الفرح على ضوء توهّجي. لا أستطيع الهروب من قدرٍ صنعته بنفسي.

كنتِ في ثوب زفافك أشهى منها، بارعة أنت في الضحكات والابتسامة كطفلة سعيدة في يوم نجاحها وكأنني نجاحٌ لك سرقتهِ من غيرك. كرهتكِ حينها يا رجاء لأنني في حالة غضبٍ أعمى تزوّجتك، جنيتُ عليكِ وعلى ذاتي وعلى من كانت لي حبّاً وهياماً. هربتُ منكِ حينها أشكو صداعاً ليس بمقدورك معالجته، هربتُ منك بعد أن صرنا معاً وبدلاً من احتضانك هربتُ لاحتضان أوجاعي، هربتُ إليها كي أراها فأضمّها وأواسيها. لأمسح عبراتها المتقدة بنار الحبّ ولوعته.

كنتِ حجر عثرة بيني وبينها، لم يكن بمقدوري طردك من حياتي فلستُ آثماً لهذه الدرجة، وتلك لن تقبل بالزواج بي بعد الآن فلم أعد أمانها الذي تحلم به.

وجدتها في ذات المكان وعلى ذات مقعد الحنين، كانت تجلس وربّما تحكي للشجرة حكايتنا تمرر بأصابعها على أحرف أسمائنا. صامتة كصمتِ نجمة بعيدة وهادئة، وما إن اقتربت منها حتّى هربت ولم ألمح وجهها بعد تلك الليلة. حاولتُ مناداتها ولكن الليل قاسٍ في سرقة المحبّين لفّها بعباءته وهرب لتحتمي به من غدر العاشق الجبان.

وبعدها بدأت أفتّش عنها في عيون النساء السوداء الحوراء، أفتّش عنها في وجوه النساء البيضاء، النساء الطويلات النحيلات كما كانت حبيبتي.

عدتُ إليكِ حينها مثقلاً بآلامٍ أحنت ظهري وأشعلت براكين من القسوة في صدري، عدتُ إليكِ فرأيتك مازلتِ بثوب الزفاف ناصع البياض، نظرتِ إليّ تبتسمين خجلاً، تنتظرين مني إشارة البدء لنحيا العمر معاً، ولكنني أمرتك بقسوة أن تخلعيه كي أنسى الخطيئة التي ارتكبتها اليوم بحقّ ثلاثتنا. دخلت الغرفة لتخلعي عنك الثوب فارتميتُ على الأريكة لأغمض عينيّ هارباً منك ومنها ومن نساء الأرض قبل أن أبدأ بالبحث عنهن. لم تبحثي عني بل فضّلت البقاء في غرفتك، ربّما انتظرتني وربّما طال انتظارك ولم آتِ إليك. حينها أدركت بأنكِ ماهرة في الانتظار، ستبقين العمر بأكمله تنتظرين رجلاً لن يأتيكِ.

في الصباح أتيتك واحتضنتك معتذراً عن تقصيري، فلم يكن الذنب ذنبك بل كلّ الذنب كان يقع على عاتقي وحدي. لم يصدر منك رد فعلٍ يذبح قلبي بل منحتني حقوقي باستسلام، وكأن هذا الدرس كان أول درسٍ لك وقد حفظته جيداً قبل مجيئك إليّ، سلّمتني جسدك أنهل منه ما أشاء،

أتذوق الحب فيه وأطبع على جسدك قبلات اعتذار كثيرة، وبعدها طلبتُ منك الغفران وأعطيتك سلالاً من مسوّغاتٍ كاذبة وحجج واهية، فصدّقتها أنت وعشنا الحبّ معاً، وكأن شيئاً لم يحدث في الليلة الفائتة التي كان يجب أن تكون ليلة سعادة وهيام.

صرخ بحزنٍ وقال:

- ارحميني يا رجاء وانهضي، أخبريني إن كنتِ ستسامحينني على خطأ قاتل، خطأ كهذا يهدم البيوت، إن كانت بدايتنا هكذا فكيف أكملنا المسير معاً؟ عفوكِ عني حينها جعلني أتمادى في الأخطاء الواحدة تلو الأخرى.

هدأ قليلاً وابتلع ريقه ثم أردف:

- وعشنا في منزلنا الجديد كأيّ عروسين، وهبتك كلّ ما ترغبينه من حبّ لأعوّضك عن تلك الليلة وكنتِ ممن ترضين بالقليل من الحب فالقليل منه ينعشك، يجعلك ملكة تفخرين به أمام قريناتك، حاولتُ نسيان حبي الأول بحبك أنت، فحذفتها من قاموس حياتي لأنك الأهم عندي. لكن بعدها

اكتشفتُ بأنني رجلٌ ذو أطماع كثيرة وذو شهوة مبالغ بها، حين رأيتُ كرمك هذا تفتّحت عيوني على نساء غيرك هنّ أمهر منك في الحب، فعملي بائعاً للعطور جذب إليّ نساء من كلّ صنفٍ ولون، وكنتُ ماهراً في التودد للنساء وإظهار إعجابي بجمالهن. أتحادث وإياهنّ ساعاتٍ عن عطرٍ صنعته بنفسي، ومع أنك كنت أوّل من تضع العطر الذي أنتجه، إلا أنها رائحة عطورهن كانت تصل إلى أنفي فتدغدغ فيّ إحساس الحب والشهوة.

كنتِ تبحثين عن الطمأنينة والسلام ولا تجدينها لأنني كنتُ أحاصرك فاتهمتك بالهروب مني وافتعال المشاكل ليل نهار. قيّدتك بأوهام اخترعتها أنا وصدّقتها أنتِ كي أجعلك المتّهمة في المقام الأوّل والأخير، منعت عنكَ كلّ ما يعيق تقدّمك نحوي، كل ما يعيق هروبك مني، منعت عنك كلّ شيء كي تكوني لي وحدي، ولم تنجحي في أن أكون لك وحدك (فنجحتُ أنا وفشلتِ أنت).

شبك أصابعه وبدأ يبحث عن مفردات ينطقها، استغرق صمته دقيقة واحدة فقط، ارتشف فيها القليل من الماء الذي لم يروه ثم قال:

- هل تستطيعين سماعي فتخبريني لماذا لم تصرخي في وجهي بأنّك لستِ أمة ذليلة تسير وراء رجلٍ لا يكترث بها؟ لكنّك كنتِ راضية يا رجاء عن كلّ ذلك، حين خنقتكِ أكثر في غيرتي عليكِ فرحتِ واعتقدتِ بأنّ ذلك حبّ كبير مني. لا يا زوجتي بل كنتُ أعمي عيونك عما فعلته بكِ لأغوص أكثر في قاع الرذيلة بينما عيناك تراقبان الحب الكبير.

هبّت العاصفة وأحدثت طرقاً عنيفاً على النافذة، وقف قبالتها وعيناه على رجاء مثبّتة وفي قلبه ندم شديد وفي عينيه دمعة يتيمة أبت الانسكاب، فهي مازالت تسمع لحكاية سيّدها. فتح علبة السجائر ليطفئ ثورته ولكنّه تذكر بأن التدخين هنا ممنوع، رماها على الطاولة ليستمع إلى عويل الرياح الشديد على عكس هدوء الغرفة التي تحثّه على إكمال الرواية، هذه المرّة أبى النظر إليها إذ خشي من عينيها المغمضتين أن تعاتبه بقسوة كقسوته، فعاد يروي وعيناه على النافذة مثبّتتان وفكره شارد في تلك الليلة المجنونة:

- جاء صديقي من سفر بعيد، أتذكرين وائلاً الذي كان ينافسني طولاً وحبيبته الشقراء كريستين، جاءا إليّ حينها يبحثان عن منزل يضمّهما، لم يكونا متزوّجين بل كانا عاشقين لذيذين فأرادا ممارسة الحبّ في منزلٍ يودعانه عشقهما فيمنحهما أماناً. دبّت الغيرة في أوصالي فكيف لهذا الشاب الأسود البشرة أن يعشق فتاة ككريستين تضجّ أنوثة ورشاقة، دعوتهما إلى بيتي واستقبلتهما كعروسين صغيرين، أخبرتك بذلك ولم تعترضي فأنت لا تعرفين الاعتراض، لا تعرفين سوى التسليم بالأمر والإيماءة بالموافقة،

رتبتِ غرفة جميلة لهما تصلح لأيّ عروسين. وأنت تعملين في المطبخ ووائل يتابع المباراة وأنا أتودد إلى حبيبته الشقراء _كريستين_ لم تمانع ودّي ولم تصد هفوتي، بل كانت طيّعة في يدي وشكلّتها كما أريد، كان يوماً ممتعاً برفقتها فلم أنساه ولن أنساه وغاب عن ذهني بأنني تركتكِ في حضرة وائل، تذكّرت ذلك بعد أن فرغت كريستين من عناقها إياي وهي تخبرني بأنني أكثر وسامة من وائل. أقنعتُ نفسي أنّك لن تفعليها ولكن ما أدراني ما يدور بخلده هو. اعتذرت لكريستين بأن هناك أمراً مستعجلاً في المنزل وعليّ الذهاب بسرعة. ركبت بجواري تستفهم عن سبب سرعتي ولم أخبرها بشيء مما يجول في خيالي ويرسمه عقلي.

ركضتُ إليكِ ورأيتكما تتحادثان حديثاً اجتماعياً عن الفرق في عادات الزواج بين روسيا وسوريا، ولكن غضب الغيرة أعماني وأنا أتخيّل أنكما لدقائق كنتما معاً فهاجت غيرتي أكثر وازداد غضبي وتشاجرت ووائل ثمّ طردته من منزلي، هو وحبيبته كريستين وكأنني لم أكن معها قبل لحظات. تفاجأتِ بما فعلته وحاولتِ إخباري بأنها أوهام خاطئة ولا أساس لها من الصحة ولكنني لم أسمعكِ لأنني كنتُ أستحمُ مما علق بي من رائحة

كريستين، أردتُ محو الأثر قبل أن تلمحيه وبهذا نجحتُ في جعلك مخطئة قبل أن تتهميني بالخطأ.

مشى على قلبها كثيراً وكأن قلبها طريق طويل، واستراح على منصّة صدرها دون أن يعتذر لهذه الفجوات التي حفرها في قلبها. سكتَ بعد أن سمع رنين هاتفه، نظر إليه ثم استجمع قواه وردّ على المتصل:

- ماذا هنالك يا بني؟
- أخبرني أنت ماذا هنالك؟ لماذا لم تعودا إلى الآن؟
- لن نعود اليوم إلى البيت، سنبيت عند رفيقتها.
- ولكن نجوى تقطن وحدها، كيف تبيت عندها.
- ليست وحدها فإخوتها هنا. لا تقلق بشأننا، مع السلامة.

وأقفل الهاتف قبل أن ينتظر جواباً من ماجد، وعاد إلى الكرسي جلس عليه ووضع رأسه بين يديه ثمّ تنهد بقلب مجروح، وقال دون أن يرفع رأسه وكأن عينيها المغمضتين من تحت جفنيها تعاتبانه:

- أنا نادم لأنني أضعتُ كلّ جميل بيننا، ولكن ماذا سينفع الندم؟ وكلّما تذكّرت تلك المرأة السمراء والتي تدعى مها أعود لأتوب عن خطيئة ارتكبتها، وتوالت الخطيئات تتبع بعدها دون أن يرفّ لي جفن. كان لها عينا المها، أتتني لتبتاع عطراً لصديقتها، جذبتني سمرتها كما أغواني فستانها القصير، تأملّتها بشراهة ومنحتها أجمل العطور (المسك والعنبر والفرنسي والإيطالي)، اختارت واحداً من إنتاجي فغلّفته بعلبةٍ حمراء وشرائط من الساتان ورحلت بعد أن سرقت لبّ قلبي. طوال الليل وأنا معها في أحلامي وفي واقعي كنتُ معكِ أنتِ، أتخيّلها وأراقصها على أنغامٍ غربية وعربية.

وبدأت ترتاد المتجر كل يوم حتى نشبت بيننا العلاقة التي كنت أتمنّاها حين اتصلت بي لتخبرني بوحدتها في بيتها الصغير، هرعتُ إليها لأقبّل كل نقطة فيها وبالفعل كانت لي حبّاً ارتوي منه، كانت ترتدي ثوباً أحمر طويلاً عاري الكتفين، أخذتني رائحة عطرها إلى الخيال وسرت في جسدي قشعريرة ودبّ الحبّ في أوصالي، مشيت معها سكران حيران إلى غرفتها وفيها التمست الحب من جديد فأعادت إليّ نشوة الشباب، تبّاً لها كم هي ماهرة بالإغواء! لم أسألها عن عدد الرجال الذين دخلوا قبلي إلى هنا،

لأنني كنتُ كالأبله الواقع تحت تأثير مخدّر، سرتُ معها دون أن أعرف نهاية دربها إلى أين يفضي؟ وتكررت تلك الليلة كثيراً فكنتُ أستحم عندها كي لا تشعري بشيء، وبدأت أنفر منك لأنني وجدتُ ملاذي لديها، وكنتُ حين أعود إلى البيت أهرب من عينيكِ اللتين تفتّشان عن أيّ شيء تتخذه ضدي كي أقع في الجرم المشهود، أنام بسرعة لأهرب منكِ وإن أتيتني أخبركِ بأنني متعب ولا طاقة لدي لعمل شيء ما. هل كنتِ تصدقينني؟ أم كنتِ تدركين كذبي ولكن ما بيدك حيلة للهروب مني أو لمواجهتي؟

عادت ذاكرته إلى الوراء في تلك الليلة التي فرغ فيها من مها ونضبت بينهما شهوة الحب وملّها واكتفى منها، فما عاد يهوى الذهاب إلى بيتها، وعاد مثخناً بألم الحنين فنام دون أن يقترب منها وكأنّ ضميره استيقظ فجأة وبدأ يعاتبه.

استيقظ في منتصف الليل وجدها إلى جواره نائمة، أمسك يدها وقبلها فتململت في سريرها، فتحت عينيها ونظرت إليه فوجدت هالة من الحبّ تطل من عينيه، ابتسمت له ثم استدارت وعادت إلى النوم من جديد، همس لها (أحبّك) وربتَ على شعرها، شيء ما يمنعه من الابتعاد عنها

والاقتراب منها في آن، شيء ما يخبره بأنّها لن تعود وشيء ما يخبره بأنّها ستبقى بجواره إلى الأبد، قبّلها من جديد على رأسها، تململت مرّة أخرى وفتحت عينيها فرأى من العتاب ما هو قادر على سلبِ دموعه وقلبه، أراد أن يفسّر لها ولكن كل التفسيرات ما عادت تجدي نفعاً، أراد الابتعاد فأمسكت به كي تمنعه من الهروب منها، أراد الاقتراب فوضعت له الحواجز تمنعه، فماذا يفعل إذاً؟ أيبقى عالقاً في المنتصف؟ لا هي تريده ولا هي تمنعه من الهروب، تريده أن يواجه. يواجه من؟ نفسه؟ مخاوفه؟ أم هي؟ فضّل البقاء في سريره ينظر إلى عبراتها الملتهبة على خدّها، مدّ يده ليمسحها فأحرقته بلهيبٍ كوى أصبعه، بات عاجزاً عن فعل أيّ شيء، همس لها بأسف مقتضب فلم تصل إلى أذنها، وربّما وصلت ولكن من المؤكد أنها لم تصل إلى فؤادها، عاد ليهمس لها بحبٍّ صادق ولكنه كاذب في ذلك، فحبّه صادق لنساء الأرض جميعهن ما عداها.

فاجأته الرياح المزعجة وأيقظته من شروده، وجدها مازالت نائمة وأجهزة الإنعاش متصلة بجسدها، نظر إلى الساعة فلم تتحرك سوى خمس

عشرة دقيقة كانت كافية لقتله، لم يدرك في البداية بأنه سيتركها في بيته وسيجدها هنا جسداً ممدداً دون روحٍ تسكن فيه.

قام من مكانه وزرع الغرفة جيئة وذهاباً وفي كلّ مرةّ كان ينظر إليها يدرك أنها تسمعه، لذلك هي نائمة لأنها تريد أن تسمع أكثر وأكثر. عاد إليها ووقف بجوارها وعند رأسها تأمل كم جهازاً متصلاً بجسدها يمدّ لها عمرا أطول من عمرها وإلى الآن لم ترجع زوجته إليه.

جلس على الكرسي الخشبي ليكمل اعترافاته التي ما إن فتح إحدى صفحات الدفتر حتى انفتحت صفحات مليئة بالكروب.

كانت أمّها تقف قبالتها حافية القدمين بثوب طويلٍ

يصل إلى كاحلها وشعرها الأسود الطويل يصل إلى أسفل ظهرها، عيناها الرماديتان تحكيان ألماً لا تشعر به. نادتها بصوتٍ عالٍ كي يصلها:

- ما بك يا أمّاه تقفين في صمتٍ كصمت القبور وقدماك عاريتان.

- هس، لا تتكلّمي فأنا انتظر وأصغي السمع لعلي أسمع خطواته.

- تنتظرين من؟

- انتظر أباك، لقد وعدني بالمجيء إليّ.

- ألم يُتعبكِ انتظاره؟

- لم أتعب يوماً من انتظاري له، عشتُ معه عمراً في محطّات الانتظار.

- وهل انتظركِ هو؟

- لا، هو لا ينتظر، فلا وقتَ لديه للانتظار.

- ولكن يا أماه سيتعبكِ الوقوف هكذا، استريحي على مقعد المحطّة.

- يا ابنتي لن أنتظره في هذه المحطّة، سأغيّر وجهتي إلى محطّة أخرى.

- لكنّك حافية القدمين.

- لا أشعر بهما، فجروح روحي أكثر ألماً ووجعاً.

- اجلسي على المقعد ريثما يأتي قطار سريع ويقلّكِ إلى المحطّة التي ترغبين الوصول إليها.

- أخشى أن يتأخّر القطار أو يذهب في طريق آخر يبعدني عن لقائه سنين.

- ولكن في النهاية سيأتي إليكِ.

- أخشى أن يطول انتظاري ولا يأتي.

كان حلماً غريباً جعل رزان تستيقظ منه فزعة، تذكّرت ما حدث من مشادة كلامية بين والديها، والدتها الصامتة على الدوام قررت أخيراً فك طلاسم الصمت والصراخ في وجهِ والدها مطالبة بحقوقها، ترغب في انتزاع حقوقها منه عنوة، ولكن هل كان لها حقوق من البداية، لم ترها يوماً تشكو أو تذرف الدمع فهي صامتة على الدوام لا تلوي على شيء،

دائماً تحوّل الأمور المعقدة إلى أمور أكثر سلاسةً ولم تطالب بربع حقّ لها، فمن أين نبتت هذه الحقوق فجأة وبدأت المطالبة بها على مسمع من ولديها؟

عادت للنوم من جديد، ولم تفكّر فيها إن كانت عادت أم لم تعد، ولكنّها فاجأتها في أحلامها، وعادت إليها في أحلامٍ أكثر غرابة من ذاك الحلم، دون أن تشعر رزان بأنها غائبة عن البيت وعن العالم بأكمله.

رنّ هاتفه من جديد فوجد نفسه يجيب دون أن يفكّر فيما يقوله، لن يكذب هذه المرّة. أخبر ماجد بما حدث واعتذر عن تأخيره في الإجابة والكذب عليه، فهو إلى الآن لم يعرف ما بها، وإن كانت ستفيق أم لا، لذلك لجأ إليه ليخبره ويبثّ إليه همومه لأن الذي يسمعه في العادة هو الهمّ الكبير الآن.

أغلق ماجد هاتفه ودار حول نفسه مصدوماً من خبرٍ وصل لتوّه إلى أذنه، صُعق مما سمع وبدأ يؤنّب نفسه على ما حصل لها، لو أنّه لحق بها فوراً ما كان ليحدث ما حدث، ولكانت القصة انتهت من فورها.

اتصل بخاله ليخبره علّه يأتي ويصحبه والذي بدوره اتصل بأخته ليخبرها، الكل أصبح عنده علم بما حدث إلا رزان التي فضّلت الأحلام، فعلى الأقل تأتيها فيها وتحكي لها الحكايا. ارتدى ماجد ملابسه على عجلٍ وخرج إلى الصالة بانتظار خاله، نظر إلى النافذة المكسورة واقترب منها يتأمّلها، هنا حدثت القصّة وانتهى الأمر بنافذة مكسورة وكأس محطّم، إلى هذه الدرجة كانت غاضبة لتحطّم النافذة بكأسها الفارغ؟ ظلّ ينظر من النافذة ويفكر ويتأمل إلى أن لمح السيارة فنزل بسرعة البرق.

وهناك اجتمعوا خائفين عليها، معاتبين تقصيرهم، نادمين على أفعالهم.

طرقوا الباب طرقاتٍ عنيفة ولكن لم يهتزّ جسده وكأنّهم لا يعنون لها شيئاً، كانوا يصرخون يطالبونه بفتح الباب فهم أهلها ولهم الحق في الجلوس إلى جوارها كما له الحقّ ذاته. الآن تذكّروا ذلك بأنّها من عائلتهم وأنّهم سندها، أين كانوا في تلك السنوات التي كانت فيها تتألّم صامتة لا تلوي على شيء، لا تحكي ولا تسرد ما في قلبها وتترجم ذلك بدموعٍ تمسحها قبل عودته، كان يرى آثار العبرات على وجنتيها دون أن يسألها السبب، يبادلها الصمت بصمتٍ أثقل ويمضي إلى حجرته، يصفق الباب خلفه هارباً من عينيها الرماديتين المعاتبتين له.

الآن أتوها وفي جعبتهم اعتذارات لا تنتهي، سلال كثيرة من ندمٍ ودموعٍ لم تلمحها في عيونهم من قبل. أين كانوا وهي هاربة منه تبحث عن مأوى تأوي إليه من قسوته وهيمنته.

تمنّى لو يستطيع مغادرة كرسي الاعتراف هذا، لو يهرب من خطيئته ليستحمّ من آثامه بحقّها، ولكن إلى أين يهرب وكلّ الطرق تؤدّي إلى وجهها؟ الندم ينهشه والشكّ يأكل ما بقي منه.

أين كانت؟ على هذا السؤال تمنى لو تفيق لتجيبه، هل يمنحها عفوه؟ أم يزيد حنقه عليها؟ لقد أخبروه بأنّها لم تكن وحدها، لقد كانت في سيارة خاصة مع رجلٍ غريب، فمن يكون يا ترى؟

من المؤكّد أنّها كانت تخونه قبل أحداث هذه الليلة وإلا ما كانت لتصرخ هكذا وهي التي عاشت قرابة الاثنين وعشرين عاماً صامتة لا تنطق إلّا إذا استدعتها الظروف لتعاتب. لماذا صرخت هذه الليلة وتمرّدت وأعلنت العصيان؟ لقد رمت الكأس بوجهه ولولا أنّه ابتعد لكان هشّم وجهه، فانكسرت النافذة بدلاً من وجهه قبل أن يتحوّل الكأس إلى ذرّاتٍ صغيرة، فتح ماجد فمه مصعوقاً وصرخت رزان برعب وهي تردد في ذهنها لماذا الآن ثارت؟ وهي التي كانت تحرّضها على الدوام أن تثور في وجهه فثارت دون كلامٍ ودون مقدّمات. ماذا حدث بتلك السنوات جميعها؟ أكان تخطيطاً منها للهرب مع عشيقها؟ لذلك أعلنتها ثورة لا تنتهي فجاءت النتائج بما لا تحمد عقباه، ماذا يقول لماجد ورزان؟ والدتكما خائنة وماتت على الخيانة؟ أيستحق بعد هذه السنوات انتقاماً بهذه الطريقة وهو الذي كان

يعتقد بأنّه يعرفها ككتابٍ مفتوح أمامه؟ شعورٌ غريب يقاسيه يشبه الحزن إلى حدٍ كبير، شعورٌ بالحيرة والضياع والتفكير الكثير مع صداع يفتك به.

جلس على المقعد يحاورها فأطال النظر إليها وكانت ضربات الباب قد اختفت وأعلن الجميع الاستسلام. دقق في كلّ تفصيل في جسدها النحيل وأمسك بيدها، لثمها ثم خبّأها براحة يديه. لم ينتبه في الآونة الأخيرة لغرقها في بحور الصمت أكثر فكانت دائماً تتظاهر بالنجاة، ونجت الآن حين انفجرت في وجهه صائحة تطالب بحقوقها التي كان بخيلاً بها.

رجع إلى الحديث معها بعد أن أصدر أنّاتٍ ضعيفة، نظر إلى ساعته كانت الواحدة إلا ربعاً:

- متى ستفيقين من غفلتك يا قصة لست أدري ما أسمّيها، الخائنة أم الصامتة؟ الحزينة أم المنتصرة؟

توقّف فجأة عن الحديث حين نظر إلى مطر السماء من خلف النافذة هاله المطر الشديد إذ كان يزداد مع كلّ اعتراف يحكيه، غيوم السماء كثيفة سوداء ومطرها مدرار، ولكن غيم عينيه تهطل دمعة واحدة تخصّه وحده

وتمطر في فؤاده. تحسس صدره وكأنّه يخشى أن ينكأ جرحٌ منه وأكمل الحكاية:

- أحببتُ اللعب من خلفك بعد أن فتحت لي الصفحات الزرقاء قصصاً في الحبّ والغرام، وكعادتي الأنانيّة منعتك من إنشاء واحدة لكِ تسلّي ذاتك بها، وأخبرتكِ حينها بأنّ تسليتكِ الوحيدة ستكون العناية بي وبماجد، فقد أصبحتِ أمّاً ويجب أن لا تقصّري على بيتك، فاجعلي بيتك في المقام الأوّل وابتعدي عن التفاهات لتسعدي وتسعديني معكِ. لكن في النهاية كنتُ أنا من ابتعد عنكِ وعنه، أسلّي ذاتي وأبحث في أعمدته عن حكايا غرام، حتّى وقعتُ في شباكِ إحداهن، لم تكن فاتنة لكنّها كانت ثعلبة مراوغة تتصنّع الحبّ ولا تعرفه، أوقعتني في شباكها، لم أغرم بها ولكن أغرمتُ بلعبتها، قررتُ اللعب حتى النهاية وهي ترسل لي صورها الجميلة وأنا أبثّها الغزل الحميم، كنتُ أراقبكِ وأنا معها فأتأمّلكِ وأنت تخيطين الملابس، تجرحين أصبعكِ فأسألكِ بشكٍّ "بماذا كنتِ تفكّرين حتى غفلتِ فسمحتِ للإبرة أن تحفر أخدوداً في أصبعكِ" تنظرين إلي بغباء وتتمتمين (لا شيء) تعاودين الخياطة وكأنّ شيئاً ما حدث، أعودُ أنا لرذيلتي السريّة وتعودين أنتِ

لأفكارك، تتركين ما بيدك لتحملي ماجداً وهو يبكي فتهدهدي له، ومن ثم تنامين وإياه على السرير بعد أن تمنحيه ثديك، وأهرب منكِ إلى الشرفة لأتكلّم كما يحلو لي الكلام. لكن المفاجأة التي ألجمت لساني حينها، حين استدرتُ ووجدتكِ واقفة مستندة على الباب، عاقدة ذراعيك، رافعة حاجبيك، أغلقت الهاتف في وجهها وعنّفتكِ لأنك لحقتِ بي إلى مكان هربتُ إليه منكِ، صمتِ كعادتك وأغلقت باب غرفتك بعد أن هرولتِ إليها حانقة عليّ، غضبتُ حينها لأنك صمتِ فلم تصرخي ولم تغضبي، حينها أدركتُ بأنكَ فقدتِ طاقتك اتجاهي رغم سعيك الدائم للحصول عليّ، فقدته سريعاً في التحدّث إلى شخصٍ كان الأقرب إلى فؤادك، وبعدها فقدتِ طاقتك للمناقشات والمحادثات الطويلة والعتاب والصراخ واللوم على الأشياء التي كانت تثير حنقك وغضبك، فقدت حتى طاقتك للتعبير عن مشاعركِ ككرهي وذرف العبرات، لذلك قصدتِ العزلة وتجنبتني حتى إيماءة رأسك لم تبذلي جهداً لأن طاقتك نفذت فما عاد يعنيكِ شيء، ولكن من المحتمل بأنك اختزنتِ هذه الطاقة لتفرغيها فيما بعد في وجهي حنقاً وغضباً حين صفقتِ الباب خلفكِ قائلةً بصوت ذبيح أنك لن تعودي ليَّ.

لنعد إلى ما حدث بعد ذلك حين تركتك تدخلين غرفتك انزويتُ أنا على الأريكة في الصالة وانتظرتكِ حتّى فتحتِ الباب وحدك هرعتُ إليكِ فلمحتُ دمعتك الصغيرة، كنتُ أراها كثيراً دون أن أسألك السبب لأن البكاء هو الشيء الوحيد القادرة على فعله حين أثور عليكِ.

(آسف) هكذا بدأتُ كلامي، ثلاثة حروف فقط والجرح كان أعمق من حدّ السكين فلن تداويه هذه الكلمة. (الأمر قاسٍ جداً فأتمنى أن تتجنّبه في المستقبل، لستُ حزينة من أفعالك، حزني لأنك حين قمتَ بالفعل لم أكن في بالك) هكذا كان ردّكِ عليّ فجاوبتك (سأتجنّبه وعهداً عليّ ستكونين في بالي إن طال العمر أو قصر) أخبرتني بأنّ الأمر كان قاسياً عليكِ لأتجنّبه في المستقبل، لكن يا رجاء فعلتُ أموراً أكثر ابتكاراً ولم أدعك تعرفينها كي لا يكون الأمر عليكِ أشدّ قسوة.

طردتُ تلك الفتاة من حياتي بعد أن عاهدتك ألا أخون مجدداً، ولكن ماذا حصل بعد ذلك؟

وقفَ مالك بعد أن ترك يد رجاء، اقترب من النافذة فشعر بصقيع فبراير يخدّر أطرافه، خبّأ يديه في جيبه وتنهّد وهو يسأل ألهذا خانته؟

لتنتقم منه؟ ولكن هذه الحادثة قد مضى عليها زمن بعيد فلماذا تنتقم الآن؟ أعاد النظر إليها وهو يدعو ربّه أن تفيق من هذه الغيبوبة ليعرف منها ما حدث بعد رحيلها عن المنزل، كان يملك من المقدرة ما يمكنه من التعبير عن الكثير من مشاعره ولكن ما إن وصل إلى قلبه حتى عجز عن التعبير فبقيت ملامح الأحداث ترسم ندماً قاتلاً على وجهه، استفاق ضميره مع دخول رجاء في غيبوبة لا يدري إن كانت ستخرج منها بخيرٍ أم لا.

لم يؤذن لماجد بالدخول ولا لأخيها وأختها، كان مستحوذاً عليها، يريد الانفراد بها ولا يريد من الآخرين الثرثرة عند رأسها. فجلس ثلاثتهم خارج باب الغرفة يتأمّلون الساعة وألسنتهم تدعو خالقهم بالنجاة لها وبكشف الكرب عنهم جميعاً.

جلس ماجد على أرضيّة المشفى ودفن وجهه بين يديه، وقف خاله قبالته يحثّه على النهوض، نظر إليه ولم يمنحه يده بل أراد الجلوس هنا بجوار بابها لعلّها ترحم وتغفر. قال حسان:

- الأرضيّة باردة، انهض وإلا ستمرض.
- لا أشعر بشيء ولا يهمني الحال الذي سأفضي إليه، كلّ ما يهمّني هي.
- ولكن إن نهضت فلن يعجبها جلوسك هنا.
- وهل ستنهض.
- ربنا أكرم مني ومنك. انهض الآن.

أمسك بيده وساقه إلى المقعد القريب أجلسه عليه، مازال ممسكاً بيده فقال ماجد:

- أريد إخبارها بأنني أصبتها بأذى شديدٍ لم تره، حين كنتُ أهرب منها بصياحٍ عالٍ وكأنني نسخة شبيهة عن والدي، أريد الاعتذار لها عن سنواتي العشرين حين أفلتُّ يدها في منتصف الطريق واختفيتُ بخيبة أمل شعرت هي بها حين وجدت نفسها وحدها تعيش.

لطالما اعتقدتْ بأنني سأقاتل في صفّها، في معركتها الشخصية ضدّ والدي، خذلتها حينها وأخبرتها بأن معركتهما لا تعنيني بشيء.

خذلتها حين تأففتُ منها مراراً وتكراراً وهربتُ من المنزل بعد أن كانت تعدني رجلها الأوّل بعد خذلان والدي لها، والآن كيف أعتذر لها عن كل مسببات الألم التي أحدثتها في حقّها؟

ربت خاله على كتفه يواسي مصابه الأليم، لكنّه كان في وادٍ بعيد، واد غير ذي أملٍ، اليأس يحاوطه من كلّ الجهات، يتأمل أن تمرّ المحنة على

خيرٍ ولكنّ قلبه يخبره بأن الألم الحقيقي لم يبدأ بعد. فالسواد قادم لا محالة في عتمة الليل الحزين.

تنهد خاله وهو يفكّر في آخر لقاء معها حين طردها من منزله كرماً لزوجته، آمراً إياها أن تعود إلى بيتها ولا تتصرّف كالأطفال مرّة أخرى، فجميع النساء يتزوّجن ولا يتركن منازلهنّ إلا بالموت فقط وحينها يخرجن منها، وكانت تلك آخر مرّة التقيا بها منذ عشر سنين مضت لم تزره فيها ولا مرة ولم تأته شاكية له زوجها.

أمّا أختها فجلست على المقعد البعيد عنهما تنظر إليهما تارة وتارة تكفكف دمعها بشالها وتتذكر كم مرّة لجأت إليها وصدّتها قائلة لها بأن حياتها لن تتغيّر فلتحتمل ما يحدث لها طالما ليس في مقدورها تلافيه أو تغييره.

كان الكل واقفاً ضدّها ولم يكن في صفّها أحد، إذن لماذا الكلّ يبكيها؟

وهي مازالت على سريرها الأبيض غائبة عن الوعي وعن الواقع الذي فرضه الجميع عليها. لم تكن يوماً بطلة روايتهم بل كانت شخصيّة ثانوية لا يعيرها القارئ أيّ انتباه.

- أمّاه، أما زلتِ واقفة؟

- تعالي معي يا صغيرتي.

- إلى أين؟

- إلى دنياي.

- لا أريد، لا أرغب حياتك التي عشتها لسنواتٍ خانعة للجميع. أنا أنثى متمرّدة لا تليق بي حياة الهوان، لن أرضى بأن أكون أمة صاغرة لرجلٍ لا يكترث بي، ولا يراني في منزله أكثر من مقعدٍ صغير يحتقره ولا يستعمله.

- أهكذا كنتِ ترينني يا صغيرة؟

- أجل وحدّثتك مراراً وتكراراً.

- لم أستطع الاندماج مع الآخرين فكبرت الفجوة بيني وبينكم مما دفعني للعودة إلى الوراء والاحتماء بنفسي.

- ما كان يجدر بكِ الصمت في البداية. ولكن لماذا اخترت العصيان وأشعلتِ ثورة الهرج والمرج بعد كلِّ سنوات السلام والسكينة التي عشتها لا تلوين على شيء. ثمّ فضّلتِ في لحظة صغيرة أن تنفعلي وتهربي.

- كانت مشاعري أكبر بكثير من مفرداتي اللغوية وهذا ما سبب لي الألم، حينها لم يسعني إلّا الصراخ. الألم في قلبي فاق حد الوجع بكثير ولن تفهمي معنى ذلك. أن تتألّمي فتستدعي جميع الآلام والخذلان وكأنّ ألماً واحدٌ لا يكفيكِ.

فتحت عينيها، نظراتها مثبّتة إلى السقف، وضعت يديها أسفل رأسها، لماذا لم تشعر بوالدتها من قبل؟ حين كانت تحسّ ببرود الأيّام وحين فقدت رغبتها بقراءة الكتب وبمشاهدة الأفلام، حين فقدت رغبتها بالبكاء واكتفت بالانعزال، فآخر فترة كانت قد امتنعت عن التواصل مع أحد ولم تشعر برغبتها في مخالطة الأصدقاء، كانت تتصرّف كرجلٍ آلي بلا إحساس ولا مشاعر.

تمتمت رزان بصوت خفيض:

- أين أنتِ الآن؟

إلى الآن رزان لم تعرف ما حصل بعد أن غادرت رجاء البيت ولكنها كانت تأتيها كلّ دقيقة في حلمٍ غير عادي، تحاول أن تشير إلى ما حصل لها، فلتهرع إليها إلى ذاك المشفى وتبكيها كما يفعل الجميع. لكن رزان أعجبتها لعبة الأحلام هذه وفضّلت أن تأتيها في أحلامٍ قصيرة لتتحدث وإياها حديثاً غابت عنه في الواقع وابتدأ في الأحلام وسينتهي عمّا قريب في الأحلامِ أيضاً، أرادت البقاء معها قليلاً لعلها تكتشف أشياء عنها لم ترها في الحقيقة.

حمل علبة التبغ مرّة أخرى ثم وضعها في درج الكومدينة بجانب سريرها كي لا يراها أمامه فيحملها وينسى بأن التدخين هنا ممنوع. أعادت دقّات الباب تطرق أذنه فتجاهلها وكأنّها ليست موجودة إلى أن هدأت وتعبت اليد التي تطرقه، استسلم الجميع لوجوده في الداخل وكأن لسان حالهم يقول إنه الأولى في صحبتها هذه الليلة وبدأ المطر يلملم رذاذه المبعثر ليرحل هو الآخر. اقترب من النافذة وفتحها ببطء وكأنّه خائف من هجوم مباغت لا يدري كنهه، ملأ صدره بالهواء حتى شعر بنشوة ونقاء فسمح لعبرته بالانسكاب لعلّ القلب ينبت فيه الحب من جديد ولكن هيهات أن يأتيه الحبّ، فالقلب الذي أجدبَ من أين يأتيه بحبّ وقد استحال إلى صحراءٍ لا تعرف العشق.

كم تمنّى الصراخ لضميره الذي استيقظ ولسؤاله الذي يباغته ألف مرّة لما كانت معه؟ وهل كانت جالسة بجواره؟ أكان يداعبها وهي تبتسم له بغنجٍ ودلال؟ لن يعرف الإجابة بتاتاً حتى تفيق من كبوتها فتخبره ما حصل لها هذه الليلة.

كان يريد الفرار من وجهها ولا مناص من قلبها وهي معه في الحجرة ذاتها، لذلك بقي واقفاً أمام النافذة فاتحاً مصراعيها يحدّثها بحديثٍ أشبه بالهمس.

واتكأ بمرفقيه على حافة النافذة وصقيع رياح فبراير يلفح وجهه وسرد الحكاية:

- صدّقتني في أكثر حالاتي كذباً، غفرتِ أخطائي، عفوتِ عني مراراً مع علمكِ بأنني سأعيد تكرارها في الغدِ كطفلٍ لا يتعلّم من عقاب مدرّسه، انطفأتِ وأنتِ تشعليني حبّاً، فعلتِ لأجلي أكثر ما تفعله النساء مع زوجها، فعلتِ ذلك حبّاً وليس واجباً، ولكن هذا جميعه لم يكفني فغادرتك من جديدٍ غير آسف وحينَ عدتُ إليكِ بقلبٍ منفطر أخبرتني (عودتك الآن لن تنسيني مرارة ما عشته وحيدة كلّ هذا الوقت).

أعترف لكِ أنّه طوال تلك الفترة وأنا أعبث مع غيرك من النساء، كلّ امرأة تأتيني تطلب عطراً جديداً كنتُ أغازلها واصفاً محاسنها فأتغاضى عن سيئاتها لأوقعها في مصيدتي، أبيع تلك عطر مي ديور وأرشّه على يدها فأحاصرها بعينيّ التي ترغب بالتهامها وهي تهمس بغنجٍ ضاحكةٍ

بمكر تشكرني على لطفي، أعود إليكِ آخر النهار وأوّل الليل مكفهر الوجه وكأنني أعود إلى خطيئتي التي لا أستطيع التوبة عنها بتاتاً فأحمّلكِ وزر آثامي وأضع عنك اللوم إن صدّتني إحداهنّ، أنتِ تعرفين مكري هذا فتتجنبيني وتهربين من وجودي ملتجئة إلى غرفتك، لا تغلقين الباب في وجهي أملاً لعلّك تحظين باستعادتي على الفور، ولكن يخيب أملك ولا أطلّ عليكِ بل أتركك لعزلتكِ الأليمة. كلّ مساءِ كنتِ تفعلين الشيء ذاته تشعلين الأمل وتضيئين الفرح في انتظار رجلٍ لن يأتي، تنعتين ذاتك ويتراكم البكاء في قلبك ويعلق في حنجرتك فيزداد الشرخ اتساعاً بيننا وتزداد الحفرة أكثر مما كانت فتقعين أنتِ فيها راجيةً قربي بينما أنا أطلّ عليكِ من برجي العاجي أتفحّص آلامك وأمضي في سبيلي غير آبه لجروح قلبك المتألّمة.

أغلق النافذة هرباً من صرير الرياح قارص البرودة وأراح ظهره على الجدار، نظر إليها نظرة اليتيم الأخيرة إلى جسدِ والدته وقال لها دون أن تسمعه:

- لا تموتي كي لا أحمل ندماً يرهقني _ندماً مفرطاً متعباً_ وكأنّك وضعت مرفقكِ على جدار روحي واتكأت بكلّ ثقلك، لا تموتي قبل أن تصفحي وتغفري.

هطل دمعه مدراراً فخبّأ وجهه بين يديه وكأنّه خائف منها أن تفيق في تلك اللحظة وترى دموع الندم تأكل مقلتيه، فالحزن لا يموت بل يخبو ثم يعود بعد فترة أقوى مما كان حين، يفطر قلبه الندم بكل ذكرى دميمة تقتله وتشيّعه إلى مثواه الأخير غير عابئة به. أكلّ ذلك بسببها حين قالت له بهمسٍ في ليلة ينايرية باردة وبخجلِ أنثى عذراء (أنا مغرمة بك) وحتى لحظة الحادث كان مستمرّاً في إحراقها بنار شكّه ورميها بسهام غدره.

اقتربت خالته منه ووضعت كفّها على كتفه طالبة منه ألا يرهق نفسه أكثر من ذلك واستطاعت بمساعدة أخيها أن يوقفاه على قدميه ثمّ جرّاه جرّاً إلى ذات المقعد لأن ماجد عاد إلى الأرض مجدداً يبكي غباءه وتفريطه في حقّ والدته. ضمّ ركبتيه إلى صدره وعقد ذراعيه حول ركبتيه وأسند رأسه إلى ركبتيه وقال بصوتٍ خفيض:

- هناك تراكمات بداخل قلبي وكأنّها بداية لمأساة لا تنتهي، بداخلي هيجان يشبه الانفجار الكوني ولا أحد يشعر بذلك سواي. في لحظةِ خاطفةٍ حدثت عاصفة لم تبدأ بمقدّمات لنجهّز أنفسنا لها. كلامٌ قيل ولم يقل من قبل. غادرت هي ولم يتبعها أحد، اعتقدتُ أنّها ستبكي أسفل السلّم وتعود إلى البيت هادئة كعادتها ولكنّها لم تعد، لذلك تأخّرت في اللحاق بها. أردتُ الصراخ في وجهها وتعنيفها بدلاً عن والدي الذي هرب إلى غرفته، فقط أردت الاستفهام عمّا حصل، اعتقدتُ بأنّها فورة غضب وستعود.

نظر إلى خالته بألم وقال دامعاً:

- ولكنها لم تعد يا خالة.

وأجهش بالبكاء ومن بين نحيبه قال:

- نحن هنا نبكيها لأنها لم تعد.

مسحت على شعره بحنان أمٍ مفقودة وقالت:

- ستعود كما كانت وستخلّد هذه الأيام ذكرى نأمل نسيانها.

- وإن لم تعد، أتعتذر الوردة عن جرحنا بأشواكها؟ أتعتذر الحياة عن إيلامنا؟ أتعتذر هي عن الكأس المحطّم والزجاج المهشّم؟ كيف سنصل إلى قلبها لنعتذر عن تلك الجروح؟

عاد وخبّأ رأسه يبكي ندماً وليت الندم يكفكف دمع المخطئين الحيارى، جلس خاله بجانبه من الجهة الأخرى صامتاً لا ينبس ببنتِ شفة، يتابع مجريات الأمور مشاهداً لا ممثلاً، غير آبه بما يحدث وكأن الأمل في جعبته كبير باستيقاظها وضمّها مرّة أخرى وكأنه سيحدث تغييراً شاملاً بعودتها سالمة إلى الجميع، سيذبح الخراف ويعطيها النصيب الأكبر، سيعتذر بطريقته الماديّة التي تكرهها، سيمدّها بالهدايا إلى أن تملّ منها وبذلك يكون قد نجا من قائمة المذنبين بحقّها وسيدعوها فيما بعد إلى

زيارته والمبيت عنده كلّما ارتأت الحاجة لذلك، لن يسمح لزوجته بعد الآن بالتطرّق لها أو المطالبة بعودتها من حيث أتت، لن يسمح لما حدث بأن يحدث بعد الآن فستكون لها الأولوية في منزله ولها الحق في فعل كلّ شيء ترغبه وتحبّه. فقط عليها أن تعود إلى الحياة ولا تعبر إلى الطرف الآخر.

اقترب منها ببطء وجلس على المقعد بعد أن أحكم إغلاق النافذة، اقترب أكثر من جسدها وكأنّه يعوّذها من الشياطين ثمّ عانقها وازداد الدمع بعودة المطر ثانية يطرق نافذته، لا يريد التفكير بمكان ذهابها قبل الحادث، لا يرغب بكرهها، فقط يريد احتضانها. همس في أذنها وكأنّها لا تسمع سوى همساته:

- كنتُ محمّلاً بقدرٍ عالٍ من الغباء، لم أرتح إلا بعد أن كسرتُ أجمل ما فيكِ، كسرتُ فؤادك فغدوتِ لا تبالين بأيّ أمرٍ يصدر مني وكأنّكِ بتّ خاوية لا شيء فيك سوى قلب يضخّ الدم لأوردة الجسد.

عاد لجلسته وترك عناقه الحار واستند بجذعه إلى ظهر المقعد ثم مسح العبرات المنهمرة وقال بصوت كحفيف الشجر:

- للأسف أحرقتُ الحبّ بيننا واستحالت العشرة وباتت ناراً تلسعنا، لم أفكّر في ذلك طالما آكل وأعيش وأنام بجانبكِ كلّ ليلة، تركتكِ لرزان تشبعين منها فهي خلقت شبيهة لكِ في الشكل، مختلفة عنكِ في الطباع،

فهربتُ منكِ مجدداً بحجة أنّكِ بتّ لغيرك حتى كثرت مشاكلنا واتهمتك بالتقصير وكلّ ذلك وأنت صامتة تدافعين عن ذاتك بكلماتٍ مقتضبة.

فهربتُ منكِ إلى أخرى خائنة لكل الرجال ولم أسلم من خيانتها، مهّدت لي درب الحبّ وأسقتني العسل قطرة تلو الأخرى، ولكنني وجدتُ نفسي في طابور الرجال الواقفين المنتظرين دورهم لالتهام جسدها، لم تشفع لي توسّلاتي بأن تقدّم رغبتي على رغباتهم، فأعلنت بأنّ لكلّ رغبة دوراً، وربّما يطول الانتظار قبل أن أصل إلى الجسد المنهك المتخم نزوة، ومشيتُ معها مسلوب الإرادة غير متعب من وقفتي بطابور عشّاقها حتى وصل دوري فأشبعتني حبّاً وهياماً وأنستني إياكِ، بتُّ مجنونها وباتت معشوقتي وصارت لياليّ لا تكتمل بدونها، أعود إليكِ مفرغاً من كلّ عاطفة وأقدّم إليكِ قلباً بارداً لا يحتويكِ، أشعل سيجارتي وأنا أمرر أصابعي على صورها العارية وأفكر كيف تهبنا الصفحات الزرقاء امرأة كهذه هدية لنا؟

كنتِ تشعرين بحاستكِ الأنثويّة السادسة بأنني في علاقة محرّمة فتبتعدين بكلّ إرادتك وكأنك تفرغين الساحة منكِ لأفعل ما أشاء وكيفما

أشاء ولكن لمَ لمْ تحافظي عليّ؟ لم أشعر ولو مرّة واحدة برغبتكِ بعودتي إليكِ سالماً من كلّ رذيلة، لم ألمح في عينيكِ سوى عتاب صامت ولوم مخيف. تتحرّك شفاهك لتحكي ألمك ثم ما تلبثين أن تصمتي لتعاودي المكوث في غرفتك هاربة من جحيمي ومن أفعالي الآثمة.

عاود عناقها مجدداً لكي يشبع منها ويشتمّ رائحة الحادث الذي غيّبها عنه وقال:

- لا تموتي، لديّ الكثير من الكلمات التي لم يفت أوانها بعد، الإرهاق يكبّلني والندم يخدّر أطرافي، في كلّ مرة أتذكّر فيها أنك واجهتِ كلّ ذلك فقط في بداية حياتنا، والأكثر إرهاقاً في هذا الأمر بأنك دائماً كنتِ تنتظرين عودتي رغم الخيبة التي كانت تكسو وجهك فأحدثت في داخلكِ ندبة أكبر من قلبك.

جلس مستقيما وبحث عن مفردات ينطقها ثم مسح وجهه بكلتا يديه وتنهد بألم ثم قال بعد أن عقد ذراعيه:

- حين اقتربتُ منكِ وسألتكِ عمّا بكِ قلتِ لي حينها دون أن تريني وجهك المكلوم (أخاف أن أمضي بقيّة حياتي منطفئة لا تستطيع مواساتي مهما أشعلت من شموعٍ في دربي، وهربتَ مني لأدرك حينها أنّ الجرح أكبر من ندبة في القلب، الجرح تغلغل في الجسد واقتطع الأمل مني) لم يكن لكِ رغبة في شرح الأمر لي لأنّ الأمر كان مشروحاً بطريقة لا يفهمها سوى المذنبين.

أعطيتُ دوري في الطابور لرجلٍ أمهر مني في الخيانة وعدتُ إليكِ صامتاً مثلك منكبّاً على عملي أغازل النساء تاركاً إياك في عراء الإهمال تقتاتين الانتظار لتعيشي بقيّة عمرك مسلوبة الحبّ شهيدة على شاطئ الغرام.

عادت تعاتب ابنتها في حلمٍ لا يخصّها:

- ما كان يخيفني دائماً هو أن أبقى خاوية على عروشي، أن أصل إلى النهاية منهارة خائرة القوى، كنتُ أذوب وأتحلل دون أن يلمح ذلك أحد، حتى شعرتُ بعدم وجودي في حياتكم. كائن من سراب لا يلمحه أحد، لم يحمني أحد من الغرق ولم يسعفني أحد من الحريق، كنتُ في سأمٍ لا يمكن مقاومته، باختصار كنتُ في كارثة روحيّة رهيبة.

- لماذا لم تصرخي حينها؟ لماذا فضّلتِ الصمت والاستمتاع بدور الضحيّة؟

- هل كنتِ ستقفين معي حينها؟

- كنتَ صرختُ معكِ مطالبة بحقوقك، كنت قد أخبرتُ والدي بأنّ حبّه ممزوج بالحسرة.

- لا يا صغيرتي، كنت ستتهميني حينها بالثرثرة وإثارة المشاكل ثم تهربين مني كما فعل ماجد من قبل.

- لم أكن لأهرب من عصيانك. كنتِ تراقبين ما يحدث بصمتٍ فظيع دون أن تتفوّهي بحرفٍ واحد حتّى لو سارت الأمور باتجاه آخر.

- يا طفلتي كنتُ مهددة الانتهاء، أنا التي أكل القلق قلبي كان سينتهي دوري في لعبة والدك عاجلاً أم آجلاً.

- كنتُ سأقف في طريقه لأجعله يمنحكِ دور البطولة في حياته.

- لذلكَ صمتِّ كما صمت ماجد حين صرختُ أنا، لماذا لم تصرخي معي؟

- لأنكِ آثرتِ العيش كلّ تلك السنوات في صمت ثمّ صرختِ في ساعة لم ندرِ ما حدث بها، فكلّنا تساءلنا لماذا اخترت نزع فتيل الحرب الآن.

- لأوقظ ما مات بداخلي ولأحيا قبل انتهاء الحكاية.

لم تستيقظ كنهاية كلّ حلمٍ يراودها بل تقلّبت في فراشها وهي نائمة لعلّها تأتيها مرّة أخرى في ثوبٍ ملائكي فتطالبها بالرحيل معها.

لم يستطع حسان تحمّل دموع ماجد فنهض من فوره ومشى بخطوات بطيئة إلى الحديقة، لم يخرج إليها بسبب المطر المدرار وإنّما وقف مستنداً بجذعه على الباب الزجاجي يتخبّط عقله في كلّ النواحي.

الآن فقط تذكّر أخته وهي راقدة بين الحياة والموت، كم مرّة خذلها وكسرها وأهانها؟ لم تكن تريد منه شيئاً سوى أن يكون لها سنداً من أعاصير مالك.

وإن اعتذر وقبلتُ اعتذاره فلن يعود شعورها كما كان، فالإساءة ستبقى جرحاً في قلبها لا تمحوه الأيام، ولكنه الآن صادق في اعتذاره وفي دمعته التي انسكبت رغماً عنه، فهو يحمل لها الآن في قلبه وبين يديه اعتذاراً يفوق كلمات الاعتذار ورحمة تفوق كلمات اللوم والعتاب.

ماذا يقول لها حين تفتح عينيها وتجده أمامها؟ أيخبرها بخطئه حين كسر فؤادها ويطلب منها مسامحته؟ لتعود أيام الودّ والصفاء بينهما.

ولكن الاعتذار الحقيقي لا يكمن في كلمة أسفٍ صغيرة بل في معنى جملة (ليتني لم أرتكب الأخطاء في حقّكِ) لأن انتزاع السهم من الجسد أحدّ من اختراقه، فهل ندم حسان حقاً على ما فعله بحقّ رجاء.

ارتجف برداً فعاد حانقاً إلى الحجرة المغلقة، وقفَ أمام بابها وكاد يدير مقبض الباب ولكنّه تراجع حين نظر إلى صفاء وقال لها:

- أظنّ أن الأمر أثقل من أن يحلّ باعتذار، الأمر أشبه ببركان حرق الزرع والثمر، أيعيد البركان ما أحدثه من دمار؟ أيعتذر للأرض لحرقها بنيرانه.

تركَ يده عن مقبض الباب وجلس بجوارهم على المقعد، ثم قال وهو ينظر إلى السقف:

- الاعتذارات لا تشفي الجراح ولا تبرئ الأسقام، ربّما يتوقّف الجرح على النزيف ولكن أثره يبقى ممتداً يذكّرها بندبةٍ أحدثها شخص كُتب اسمه قبل اسمها في دفتر العائلة، هذا الدفتر الصغير مستطيل الشكل الذي يذكّرنا دائماً بأننا عائلة واحدة، ولكن ماذا حدث تلك السنوات حتى جاء اليوم الذي رفضتُ فيه سماع شكواها وأخبرتها بأنّها ليست صغيرة كي تأتيني باكيةً إهمال زوجها لها. أتذكّر تلك النظرة التي أطلّت من عينيها وكانت نظرة خيبة وخذلان، لم تبتسم بل صمتت

وكأنها تهتف بأحرف اللغة جميعها كي تصطفّ أمامها لتنتقي منها عبارتها، طال صمتها حينها ثمّ اتجهت إلى الباب، قبضت على المقبض ويدها ترتجف ثم التفتت تنظر إلى خوائي الناظر إليها بمكرٍ شديد وقالت لي (أعتذر لكَ لأنني جعلتك تشاركني طريقاً لا ترغبه، سأعود الآن دونك وسأنفض كفيَّ عن ما علق بهما من إخوة شاركنني دفتر عائلة صغيراً وبيتاً ضمّنا بحنان، أعتذر لك على سردي تفاصيل تافهة بنظرك لا تعنيك شيئاً، ولكن ظننتك سنداً وإن بعض الظن إثم، أعتذر لحماقتي حين أتيتك طالبة منك المساعدة) قطعت كلماتها وكأنّها تودّ قول المزيد ولكنّها خرجت، صفقت الباب خلفها بغضبٍ وكأنها تنتقم منه.

نظر إلى الأرض وشبك أصابعه وراح يفرقعها وهو يتأمّل بلاط المشفى النظيف ثم أكمل بتعبٍ بان على وجهه:

- أنا هنا الآن لأعتذر لها عن حبّها لي مع أنني لا أستحقّه، أعتذر لها لأنّها أُجبرتها على كراهيّتي دون قصدٍ مني، أعتذر لانتظارها

الطويل لي دون أن آتي إليها ولو مصادفة، غفلتُ عنها فركضتُ وراء الحياة لاهثاً وراء الملذّاتِ ناسياً ذاك الدفتر الصغير الذي ضمّ اسمها خلف اسمي.

الكلّ صامتٌ يدعو الله في سرّه السلامة لها، وفي قلبهم اجتمعت أحزان وتلاحمت في عينيهم الدموع.

كسر الخواطر لا يجبره الاعتذار، أين كان حين هربت إليه تشكو ظلماً أصابها فهرب منها وابتعد عنها، رأت فيه الأخ السند ورآها أبعد الأشخاص إليه، وصل اعتذاره متأخّراً كثيراً كاقتراح لونٍ ذهبي بعد انتهاء لوحة لوّنت بالأسود، كان عليها هي الاعتذار أولاً لنفسها لأنّها تركت المجال له مفتوحاً ليكرر ذات الخطأ، عليها الاعتذار لقلبها الذي جرحته حين كان عندها الكثير من الفرص للنجاة وأضعتها جميعها. الاعتذار لها الآن لا ينفي كونها مجروحة جرحاً أعمق من دموعه المنذرفة ندماً وحسرة.

صرخ بعد أن غطّى وجهه بيديه

- آسف.... أرجوك.... آسف... سامحيني.

ربّما إن استفاقت فستسامحه ولكن الجرح في قلبها لن يعود ويلتئم.

الاعتذار عادة سيئة جداً لا تصلح الأمور إلّا نادراً.

لم تستفق رجاء ومازالت الأجهزة الطبيّة مثبّتة في كل مكان من جسدها، عاد الطبيب إليها وفتح له مالك الباب مرغماً، تفحّصها الطبيب صامتاً وغادر كما دخل دون أن يعير مالكاً أيّ اهتمام، وكأنّ مالكاً ذرّة من غبار لا تُرى بالعين المجرّدة، الكلّ هنا يمارس هواية الصمت عليه، ذاك الصمت اللعين الذي خرب دنياه وهنا سيجرّه إلى الجنون، لماذا الجميع يهوى الصمت ويتبعه كطريقة للتعبير؟ للتعبير عن ماذا؟ ربّما جرح أو غفران، ربّما حسرةً أو جهلاً.

وقفَ وراء الكرسي ينقل بصره بين النافذة وبينها، فهي تشبه هذه النافذة إلى حدٍ كبير، إنها مثلها اجتمعت عليها خيبات شتّى حتى باتت غامضة لا يُرى ما بداخلها كهذه النافذة التي امتلأت برذاذ المطر فأعمت البصيرة عمّا خلفها من قطراتِ المطر التي تنساب فوق الأشجار.

ابتسم ابتسامة صغيرة إذ تذكّر حبّها في قلبه، نعم هو يحبّها ولم يكرهها قط، ولكن لا يدري لماذا يهرب منها إلى أخريات، من المؤكّد أنها هي من

شجّعته على ذلك حين اتخذت الصمت دواء لترهبه فهرب منها إلى الجميع. قال لها والابتسامة الناعمة مازالت على ثغره:

- لنترك الليالي القذرة جانباً وتعالي نسترجع حكاياتنا وذكرياتنا، حين تعرّفنا إلى بعضنا، أوّل كلمة دارت بيننا، متى أحببتك وأحببتني؟ حين بدأنا بأحاديث لا تنتهي، عرفتِ ما أحب وما أكره، كنت سريعة البديهة في ذلك.

اتفقنا معاً بأنّه مهما حصل خلاف بيننا علينا البقاء معاً وأن لا نترك الأيادي فلتظلّ متشابكة العمر بأكمله. أخبرتكِ أنه إذا غضب أحدنا من الآخر فليصمت دقائق ريثما يهدأ الغضب وبعدها نتحاور ونتناقش بهدوءٍ وسلام.

استدار إليها وصرخ:

- لم نتفق أن تصمتي العمر بأكمله، قلتُ لكِ دقائقَ فقط لا سنين طويلة، ألهذه الدرجة كنتِ غاضبة مني؟ فانتظرت أن تهدئي وطال

انتظارك على عتبات جنوني، اتخذتِ صمتك خلال هذه السنوات ذريعة لك فامتنعت عن أيّ حوارٍ بيننا.

كنتُ آتي إليكِ لأخبركِ بشوقي وحبي وكنتُ حينها أكذب عليكِ وعلى ذاتي، كنتُ أفعل ذلك لأهرب من صمتك وعتابك المطلّ من عينيك الرماديتين فأهرب مما أعيشه في حياتي الماجنة، لقد تعبتُ يا زوجتي من التفكير الذي هدّني ومن ضجيج رأسي المتّخم بكِ، تعبت من مداواة قلبي فالدواء موجود بكِ والطريق إليكِ صعب الوصول.

أدار وجهه عنها فهو يريد أن يتحاشى النظر إليها ومع ذلك يرغب بتأمّلها حد الإرهاق كي يشبع منها، فإحساسه يخبره بأنها ربما تكون هذه المرّة الأخيرة التي يحادثها فيها وهي صامتة كصمت المدافن في الصحراء.

جميعهم تعساء ينتبهون بعمقٍ إلى أدقّ تفصيلٍ يذكّرهم بهروبهم منها ورفضهم مساعدتها، الكلّ اجتمع الليلة إلا واحدة منهم لا تعرف إلى الآن ماذا حصل وتصرّ على النومِ لتحلم بها فقط، جمعتهم مصيبة واحدة وبلاء لا يعرفون متى حدث ومن المسؤول عما حدث، يخشون أن يبتلعهم الندم قبل فوات الأوان.

لم يطق ماجد الصبر على بلواه، خرج إلى الحديقة لعلّ دموعه تمتزج بقطرات المطر وهي تجود على الأرض العطشى، لم ينتبه إلى ليلة فبراير المجنونة وهي تقحمه بمطرها المنهمر عليه كوابلٍ من رصاص، كان تفكيره منصبّاً على الأم التي كانت رحيمة عليه.

استند إلى جذع شجرة يحتمي من المطر بظلّها الكثيف ورفع رأسه عالياً يناجي خالقه أن يعيدها إليهم ويرفع عنها تلك الأجهزة الغبية ويزيح الغمّة عن كاهل الجميع.

أينما التفت رآها وهي تحيك كنزته الصوفية التي استهزأ بها رافضاً ارتدائها وهي تتوسّل إليه فلعلها تحميه من زمهرير الشتاء، رآها في كلماتِ أغنيتها المفضّلة، بين أسطر كتبها، بين أوراق الشجر وفي قطرات

المطر، في المقعد المقابل له وفي الجانب الآخر من ضفّة الحياة، ولكنها غير موجودة في واقعه وهذا زاد من آلامه.

عنّ وتأوّه بصوتٍ خفيض وفي عينيه دمعة منكسرة تهزأ به وبآلامه، مسحها غيظاً وحنقاً إلى متى سيظلّ يراقب ما يحدث بصمتٍ فظيع وكأنّه استعار لغة الصمت خاصتها؟ متى سيظلّ عاقد الذراعين ولا يعلم إن كانت ستنجو أم لا؟ صاح بعواء كعواء الذئاب المجروحة:

- كم حاولتِ أن تجعليني أشعّ نوراً وكم حاولتُ جاهداً إطفاءك.

صمت وتنهّد ليتكلّم بأسلوبٍ ساخرٍ دامع:

- كنتُ أهرب منكِ لأقف خارج دائرة الانتظار، تلوّحين لي بأنين فتخبو ابتسامتك رويداً رويداً، وفي المساء أعود إليكِ بصمتٍ لا يشبه صمتك، صمتكِ فيه انكسار وصمتي فيه غرور، أهرب منكِ كي لا تكرري الحديث عن أشياء لا أرغب بالتفوّه بها، لم أعد أحتمل نصائح جديدة تلقينها في وجهي كلّما رأيتني.

آخر مرّة تصادفنا في المطبخ قلتِ لي (أثقل شيء أواجهه هو أنّي أملك في صدري الكثير من الكلام الذي ضاعت فرصته) ثم صمتِ وأنت تتأمّلين برود وجهي الخالي من أيّ تعبير وقلتِ (عد إلى نفسك) تركتني وقتها في متاهة كلماتك وشرعتِ تغسلين الأطباق وكأن لا وجود لي في المطبخ. تركتكِ مع أطباقك وهرعت خارج البيت أتنفّس هواء لا يخنقني.

مسح رأسه بيده ثم قال:

- ألا تدرين بأنّ الأمر يصبح أكثر مشقّة حين أقطع العمر كله لكي أعود إلى نفسي. ها قد عدتُ يا أمي فعودي إليّ رجاءً وأثقلي قلبي بنصائحك الكثيرة، أحبكِ لي أروع الثياب، عودي لأقبّل أجمل ما فيكِ، لأرسم ثغرة السعادة على محياكِ. فقط عودي. سأبقى بانتظارك هنا حتى يخبروني بأنّك تريدين زيارتي ولكن لا تتأخري، لا أريد أن يطول بي الانتظار على رصيف رضاكِ، كالذي ينتظر ردّاً على رسالة لم يرسلها وأنا أرسلتُ اعتذاراتي فهل وصلتك يا أمي؟ سأنتظر ردّك على كلامٍ لم

أخبركِ به من قبل، وأتمنى أن تقبلي توبتي وتغفري تقصيري، فأنت كنتِ ومازلتِ الأم الرؤوم المشبعة عطفاً وحناناً.

جلس على طرف سريرها وفتح هاتفه يعبث به فوجد رسالة في أيقونة الرسالة لم يفتحها بعد، وقت إرسالها الساعة العاشرة والنصف أي بعد رحيلها بنصف ساعة (فقدتُ كلّ طاقتي لعودتك إلي) كم مرّة قرأها ربّما ست مرّات أو ثماني مرات، ولكنه كان شديد التركيز والانتباه وهو يفكر بكلّ حرف أودع في هذه الرسالة.

الغبية... من سيفهم ضجيجاً داخلها وهي في أتّم هدوئها. أبلاها بالغرام ثم خذلها وأذاقها عسل الهوى فقتلها. رمى هاتفه جانباً وتأملها هي وأجهزتها الطبية ثم قال دون أن يشيح بنظره عنها:

- ولكنني يا رجاء حاولتُ البعد عن النساء من أجلك ومن أجل دمعة انسكبت على خديّك في دجى الليل حين قلتِ ساعتها (أواصل القفز فوق الأيّام مثل حواجز السباق أسابيع شهوراً سنين لأنسى، وفي كلّ مرّة أنجح في القفز وأنسى فتعيدُ أنت الكرّة مرّة أخرى فتعيدني إلى خيط البداية وأستحضر قهر السنين وغليان الألم فوق صدري، أكثرُ ما يثير غضبي أنك طالبتني بالمغفرة ثمّ قدّمت لي أشياء أتعبتني واستنزفتني، فداخلي

يشتعل كثيراً وأنت تعرف من أضمر النار به، قلبي يشتعل رغم هدوئي الظاهر).

لم أصمت كصمتكِ، أخبرتكِ حينها باعتذارات مثيرة وبأن الأمر في النهاية يجرّني لأن أكون بطلاً رغماً عني في حياة إحداهنّ، لا أدري، فهناك أشياء يصعب التكهّن بها والحديث عنها كالصدأ الذي يأكل ما تيسّر له من قلبكِ الهش مع أنه لا يعجبه مذاقه، امنحيني قليلاً من الوقت يا رجاء وستملكين مالك مرّة أخرى.

عاد الهوى يطرق بابي مجدداً ففتحتُ لأنهلُ منه عسلاً لذيذاً طيّب المذاق، عاشت بداخلي إلى الحدّ الذي لم أعد أطيق فيه العيش بالعالم الخارجي، عبرتْ من خلالي واختارت الاستيطان داخل طمأنينة قلبي التي باتت تخصّها وحدها، صبيّة في العشرين من عمرها تضجّ أنوثة ودلالاً، في هذه اللحظة شعرت بدفء حبّها وكأنّها وشاح أمي ومعطفها، بعدتُ عنكِ وكأنّكِ غريبة لا أعرفها بعد أن وقعتُ في غرامها سهواً دون إدراك. تمنيّتُ لو أشتري لها العمر وكلّ نجوم الليل ولكنّها فضّلت ما هو أصعب، بيتاً يؤويها تكون سيّدته وهذا ما أرفضه، لأجلها اعتكفتُ في كنف الفجر

بعد أن استأذنت من الشمس وطلبتُ منها أن تشرق هي بدلاً عنها. كنتُ أشعر بالنقص من دونها مع أنني امتلك في بيتي من تشرق لي.

كانت تعاملني في كلّ مرّة وكأنها تراني للمرة الأولى وحافظت عليّ وكأنني الوحيد في هذا العالم، لم تعترف بالنهايات فأحبتني كل يوم مثل البدايات. طلبت مني الزواج لتصير حلالي. لم أفكر بقدوم يومٍ كهذا، ولكن لماذا تريد أن تنهي ما بيننا؟ ألم تصرّ على رغبتها في البقاء في البدايات؟ إذن ما شأنها في زواج لن يسعدها، هي حبيبتي أجل ولكن لا يمكن أن تصبح زوجتي. طال تفكيري وشرودي.

اهرب إلى صمتك وأمضي الليل معكِ حتّى أقع في حبّ صمتك فهي عكسك ثرثارة ولا تعرف للصمت طريقاً، فأقول في نفسي (هل من الممكن أن أعيش مع ثرثارة لا تتقن لغة الصمت) نظرتِ إليكِ حينها وأخبرتكِ (بينما تظنّين أنّكِ عاديّة الملامح أجد نفسي غارقاً في رماد عينيكِ، فهل تقبلين اعتذاراً يليق بحبي لكِ).

حاولتِ التكلّم فأسكتُّك بإصبعي حين وضعته على فمك وأخبرتك (بمجرّد مرورك المدهش في مخيّلتي أصيب بالسعادة بطريقة مفرحة)

وعندما ارتطمت عيناي بعينيكِ سقط قلبي أرضاً، فالكلام كان موجّهاً إليها ولا أدري لم نطقته لكِ بدلاً من الذهاب إليها والاعتذار لها.

أدركتُ حينها بأن الاعتذار لم يكن لكِ وأنّ هذا الاعتذار ما هو إلّا لخذلان جديد دبّ في أوصالك، لم يطل صمتك هذه المرّة وإنّما بددتِ السكون حين قلتِ بنبرة منكسرة (تتحدّث بطريقة مذهلة وكأنك تشكل بستاناً أخضراً لغاية قلبي) اقتربتِ مني حينها ونظرتِ إلى عينيّ فقلت لي (لا تكرر الخطأ كي لا تقتل الحبّ بالاعتذار، حقلك الأخضر سيتحوّل إلى رماد من كثرة بعثرتكِ وزوبعاتك التي لا تنتهي) وعدتِ قافلة إلى غرفتكِ وترددتِ هل تغلقينه أم تبقين الباب مفتوحاً على مصراعيه ولكنّكِ في النهاية تركته مفتوحاً وكأن لسان حالك يقول لم أغلق بعد باب التوبة فلتتب عن ذنوبك قبل فوات الأوان. لكنني فضّلتُ عدم التوبة وسلكتُ سبل الشيطان حين جلستُ أستذكر ما قالته هي لي وكيف أعتذر لها، وهل سيكون قلبها كبيراً كقلبك وتغفر لي زلّاتي الشيطانية وتحكم بحكم الهوى بيني وبينها؟

تركتها يا رجاء لا حبّاً بك ولا إكراماً لك ولكن هرباً من زواج لا أرغب فيه ومن قيد جديد يلتفّ حول عنقي ويخنقني لذلك هربت وفضّلتُ أن أسلك سبل الهروب، وكلّ السبل كانت تفضي إليها حتى صارحتها بعدم مقدرتي على الزواج. شتمتني بكلمات نابية وساقت جميع الكلمات السوقية وصفعتني بها ومن ثم عادت من حيث لا أدري. كما نبتت فجأة أمامي اختفت فجأة حتى خيّل إليّ بأن الأرض انشقّت وابتلعتها فما عاد لها أثرٌ بعد ذلك اليوم، وعدتُ لكِ جسداً وقلباً صغيراً لا يحتويك.

قالت لطفلتها:

- أريد إخبارك في هذا الوقت بأنك تشغلين تفكيري فأشتاق إليكِ يا طفلتي الصغيرة والأهم من هذا الاشتياق اعلمي بأنني أحبك جدّاً.

اقتربت منها رزان كي تعانقها لكنّها تحوّلت إلى ضوءٍ هفّافُ، سراب برّاقٌ وكأنها ما كانت.

أفاقت من أضغاث أحلامها، جلست واضعة يدها على رأسها وعقلها واقف عند الساعة العاشرة حين حدثت الزوبعة، توقف إدراكها عند عقارب الساعة العاشرة حين سمعت ضجّة قادمة من الصالة، هرعت لترى والدتها في حالة من الهيستريا تصرخ وتصيح وكأنّها شخص لا تعرفه. لم تحاول إيقافها، فقد كانت تحاول استنباط ما حدث وماجد لم يحاول إيقافها أيضاً، حتى والدهما كان صامتاً ولكن عينيه تقدحان شرراً من غضب. لم تفعل شيئا سوى وقوفها في صمتٍ أمام غرفتها تحاول أن تعي ما حدث بين والديها.

ولكن ما كان من رجاء إلّا أن رمت الكأس بغضب إلى مالك الذي أبعد وجهه فتهشّم زجاج النافذة وتطايرت ذرّاته في الهواء محدثة ضجيجاً فاق

ضجيجها. هدأت بعد ذلك وهي ترتجف غضباً، ومالك ينظر إليها فاغراً فاهُ. هدأت هي فانسكب الدمع من عينيها وقالت دون أن تهمّها عبراتها (إن لملمتَ الزجاج جرحتَ يدك وإن تركته جرحت قدمك، فحذار الاقتراب مني بعد الآن) وصرخت بأنّ قلبها كالزجاج تصعب لملمته وإعادته كما كان.

هددت مالكاً بأنها لن تعود إلى صومعته مرّة أخرى، ستترك برجه العاجي إلى الأبد، وصفقت الباب خلفها حانقة عليه. حاولت مناداتها رزان ولكنّه أجبرها على التراجع قائلاً لها (ما هي إلا زوبعة خفيفة تجتاحها وستعود ريثما تهدأ) آمراً إياها بتنظيف الصالة من الزجاج. وحين حاول ماجد اللحاق بها كانت قد سبقته إلى حيث لا أحد يدري، فعاد خائباً إلى البيت ينتظرها ومرّت نصف ساعة ورجاء لم تعد. حاولت رزان الاتصال بها ولكن هاتفها مغلق كقلبها الصغير. استسلمت للنومِ على أملِ عودتها صباحاً. كانت غاضبة منها لأنها افتعلت شجاراً ذات مساء هادئ.

وقفت أمام النافذة تخطّ أحرف اسمها عليها وبدأت تتساءل عن السبب الذي أيقظ والدتها بعد رقادٍ طويل، ما السبب الذي أدّى إلى الحالة الهستيرية؟ أهو برود والدها الذي أدّى بها إلى حالة الانفجار؟

جاءتها أمها في أحلامٍ شتّى فهل أصابها مكروه ما؟ ستوقظ والدها لتخبره بما رأت وحلمت فليذهب للبحث عنها ولا يعود إلا وهي معه، ولكن أين عساها تكون؟ من المؤكّد أنه يعرف طريقها وإلا لما سكت على ذهابها. اتجهت إلى غرفة والدها ودقّت الباب دقّاتٍ عنيفة كي يستيقظ ولكن لا مجيب لعنف دقّاتها. فتحت الباب ليتراءى لها السرير فارغاً. اقتربت من السرير فرأت بقايا الكأس المهشّم، جلست القرفصاء أمام ذراته المتناثرة وتساءلت ماذا حدث هنا أيضاً، ربّما عادت أمها وافتعلت شجاراً أقوى. هل ذهب لملاقاتها؟ هكذا كان تفكيرها في البداية ولكن الساعة قد تجاوزت الواحدة والربع بعد منتصف الليل فلا يعقل أن يخرج في وقتٍ كهذا ليعيدها إليه، اتجهت إلى غرفة ماجد وطرقتها بهدوء خشية إثارة المشكلات معه إن كان نائماً فلا تزعجه بطرقات الباب العنيفة ولكن أيضاً لا مجيب لدقّاتها التي ارتفعت غير آبهة به. فتحتها فتراءت لها الغرفة خالية أيضاً من

ساكنها. ثارت الشكوك بداخلها وأحدثت قلقاً راودها واستقرّ في أحشائها محدثاً ألماً في معدتها. سارعت إلى غرفتها لتلتقط هاتفها وتحادث والدها ولكن لا مجيب لرنات الهاتف المزعجة.

حمله مالك بين أصابعه المرتعشة ووضعه على الوضع الصامت، لا يريد إطلاع أحد على شكوكه فرجاء لم تمت بعد ومازالت تسمعه وستفيق لتخبره بما حدث معها ومع من كانت. لا يريد لأحدٍ أن ينغّص عليه ما يحكيه لها، فرواياته كثيرة وقصّته لم تنته بعد وفي ذات الوقت لا يريد بثّ القلق في قلب صغيرته.

لكن في فعلته هذه بثّ أطنان من القلق في قلبها الغضِّ، فاتصلت بماجد ترجو الله أن يجيبها، قلبها يخبرها بأن هناك صدعاً كبيراً حدث في أسرتها، متى ازداد الشرخ في هذه الأسرة، فهي لا تدري كانت في غياب عمّا حدث، لكن لماذا يغيّبونها عن الأحداث الدائرة فهي بنظرها قد تجاوزت الثامنة عشرة ولم تعد صغيرة ولكنهم للأسف يعتبرونها كذلك.
جاءها صوته الباكي:

- ألووو

- ماجد، أين أنتم؟ أين أبي وأمي؟

صمتَ ماجد وهي تستمع إلى شهيقه الصاعد وزفيره. فاستحلفته بالله أن يخبرها.

- والدتنا غائبة عن الوعي على سرير ذي ملاءات بيضاء، تغفو بداخل غرفة مغلقة لا ندري إن كان القدر سيكتب لها نجاة أم لا.

ظلّت صامتة متفاجئة ببلاء سمعته في توّها، لم تعد في وعيها ولم تسمعه حين قال جملته الأخيرة

- ادعي لها وصلّي كي تمضي المحنة على خير وتعود إلينا أجمل مما كانت.

صرخت وبكت بعد أن أغلق ماجد الهاتف وتركها تعاني وحدتها في منتصف الليل مع شبح والدتها التي ربتت على كتفها تواسيها من أحزانها. جلست على الأرض تنتحب فلا تدري إلى أين تذهب ولا تستطيع مغادرة المنزل في هذا الوقت المتأخر وفي هذه الليلة المجنونة.

زحفت إلى غرفة والدتها فقدماها ما عادتا قادرتين على حملها، ومن بين أنهار الدموع شقّت طريقها إلى السرير الكبير، وتجنّبت ذرات الزجاج المترامية على الأرضيّة الباردة. جلست على حافته حيثُ كانت تجلس والدتها صامتة حزينة متألّمة. تأمّلت هدوء الغرفة وهي تستغيث أن يرحمها الله من ليلة فبراير المجنونة ومن ليلة ستخلّد في جحيم الذاكرة. غطّت وجهها بيديها وانتحبت صمتها وغبائها، صرخت، تأوّهت، علا عويلها واندمج مع عويل الرياح، شهقت وزاد صياحها تبكي وما من مجيب لصيحاتها الحادة التي دوت في غياهب الليل فارتج لها الكون بأكمله وردّ عليها الرعد بدويّ، انتفض قلبها الغض وسقط من مكانه. فزاد بكاؤها مع ازدياد المطر المدرار. كلاهما يبكي، هي تبكي والدتها وخوفها من حلكة الليل وجنونه والمطر يبكي حزناً عليها وإشفاقاً بحالها. فحملها رعبٌ فوق رعبها ومن ثم التحمت الدموع معاً لتشكل دموعها على وسادة رجاء التي حملتها فضمّها وشمّها وبعدها وقعت عيناها على دفترٍ متوسّط الحجم زرقته كزرقة البحار والسموات. في هدوء حملته، وبدموعٍ فتحت بوابة جهنّم إلى قلبها، وتدفّقت بعدها مشاعر لم تروَ لإنسان عاش ولم يعش في

هذا البيت البارد. مسحت عبراتها لتقرأ ما سطّرته والدتها بيدٍ مرتجفة وبدموع رقصت في محاجر المقلتين وحدهما دون أن يراهما أحد.

وحدها صفاء كانت تدعو الله في سرّها بنجاة أختها، بيدها المسبحة تسبّح خالقها وتدعو لها بالشفاء، ما هدأ ثغرها عن الدعاء لحظة واحدة وهي تربت على كتف ماجد بحنان، حاولت بثّ الأمل في قلبه بالدعاء لها ولكنّه كان شارد الفكر تائهاً في وديان الغياب. فسحبت يدها وراحت تفكّر كما الجميع. لم تستطع الاعتراف بجريمتها في العلن ففضّلت التحدّث مع ذاتها.

- كنتِ الجبل الذي أستند إليه عند الشدائد، الشريان الذي يوصل الدم إلى القلب، كنتُ أحبّكِ كثيراً ولكنّك كنت تزعجينني بمشاكلك الغبية، ولكن وإن طال الزمان ستبقين رفيقتي في الأحزان والأفراح لأنّك بهجة الروح والقلب والأيّام، فعودي إلينا لأن شعور الوحدة قاسٍ حين أعود دونكِ، وحدة لم أشعر بها من قبل ولكنها الآن تفتك بي.

رفعت يدها إلى السماء تدعو خالقها بصوتٍ مرتجف:

- يا رب خذ من عمري وامنحها طول العمر يا الله، اجعلها تحيا باقي العمر بأكمله وسأجعلها تستند عليّ كأكثر الأشياء ثباتاً بلا منازع. سأكون

بيتها الثاني، صديقتها الأولى، سندها في الدنيا وكتفاً تتكئ عليه وقت تعبها، وحضناً تلجأ إليه من قسوة الأيّام.

سكتت وعادت تصارع ذاتها بأفكارها الجارحة القاذفة لضمير استفاق في التو ويرى ما يحدث من صراعٍ ليحيا وينتصر.

- كنتُ في نعمة وعافية، لم أشكر الله على نعمه لذلك أخشى أن يستردّها مني ويعاقبني بالحرمان. لم أشعر يوماً بهذه النعمة التي يعجز الحرف عن وصفها، وقد شعرت في وقت لم أفكّر به أبداً وكأن الله يعاقبنا لعدم شكره ويعاقبنا لعدم إدراكنا نعمه، إنه يستأهل الحمد عليها ولكننا جاحدو النعم. لم تخبريني يوماً بحبك لي لكن حين وقعتُ ذات يومٍ من الحمى أغلقتِ عينيكِ ألماً وبكيتِ وجعاً وكأنك أنتِ التي تتألّمين، شعرتُ حينها بشعورٍ كبير وكأن قواميس الحبّ كتبت أشعاراً ورسمت أحرفاً تليق بعظمة الحب الذي بيننا، كنتِ كتفي الثابت الذي استندتُ إليه من نوائب الدهر فلم تميلي حتّى أميل معك، (إن لم أستطع إسنادك فسنقع معاً ضاحكين على أنفسنا) هكذا

قلتِ لي ذات مرّة ولم أحفظها ونسيتها وها قد جاء اليوم الذي أتذكّر فيه كلماتك وأبكيكِ.

عادت تدعو وتطلب من الله أن يعيد لها الروح التي تحيا بها، أملاً أن يعيد لها اليد التي تمسك بها عند ضعفها فهي الحياة التي امتلكتها بوجودها. ابتسامتها الدائمة وحياتها الكاملة فيا رب لا ترها بأساً تكرهه، وأدمها واحفظها من أيّ مكروه.

قالت لماجد وهي تربت على يده:

- لو استبدلوها بخيرات الأرض قاطبة لا نبدّلها، أيكفينا ندم أكبر من ذلك.

ردّ ماجد بصوتٍ مبحوح:

- هي أنسنا وسعادتنا، جنّتي في دنياي وجنّة تحت أقدامها في آخرتي، هي كالورد في جماله وكالماء في نقائه وكالعسل في صفائه.

- أدع لها يا ماجد أن يديم وجودها في حياتنا.

بنظرةٍ لامعة رفع رأسه إليها وقال:

- يا رب... يا رب، هي الأمان المتدفق بأنسي وملجأ الأحزان وبئر الحنان.

الآن أدركوا وبعد انتهاء الحكاية بأن الأشياء الجميلة لا تأتي سوى مرّة واحدة في العمر، هي الشيء الجميل الذي يحتاجونه كي يزهروا، ولكن لماذا لم يعرفوا ذلك حين كانت معهم صامتة تتجرّع مصابهم ويردّون حزنها بسكاكينهم؟ لماذا لم يدركوا إلا وقت الرحيل أو قبل الرحيل.

توقّف هطول المطر فجأة وتجمّدت السماء تحكي حكاية لم يعترفوا بها من قبل، تحكي قصّة رجاء بحزنٍ أبكى السماء ثم توقّف فجأة. انقشع الغيم الأسود مخلّفاً وراءه أرضاً باردة وهواءً يلفح الصخرَ وسيولاً على الأرض العطشى، ومع أنّ الجو شديد البرودة إلا أن مالكاً شعر بحرارة تلهب جسده فخلع عنه جاكيته ورماه على الكرسي المجاور لسريرها.

تمشّى في الغرفة يلعن رائحة المخدّر النفاذة إلى أنفه، ويلعن عبارة ممنوع التدخين في كل مرّة يراها، يريد أن يصبّ جام غضبه على النيكوتين ويحرقه كما يحترق هو، سيظلّ يفكّر في حرق النيكوتين حتّى تستيقظ وتجاوبه على سؤاله، حتّى ذاك الرجل لم يستيقظ بعد من غيبوبته ليسأله السؤال الذي يطوف في ذهنه لمرة الثانية والعشرين في الدقيقة بعدد سنوات زواجه، أين كانت؟ ولم كانت معه؟ جلس بجوارها على السرير وهزّها ببطء لعلّها نائمة فتستيقظ، فناداها:

- رجاء، أفيقي أرجوكِ، لا تدعي الهذيان يأكلني، وامنعي الشكّ من الاسترسال بأفكارٍ مشؤومة يرفضها قلبي ويتبنّاها عقلي، أنتِ عاقلة

يا رجاء لا تعرفين درب الخيانة، وحدي أنا الخائن والقاتل، القاتل...

نعم أنا من قتلتك ولكنّك لن تموتي وستعودين. حينها سأنزع عني زي الخيانة وأحبّك، نعم حينها سأحبّك للأبد لأنك ستغفرين وتسامحين، سأتوب بين يديكِ وفي محرابك سأصلي داعياً الله قبول توبتي.

رجاء أفيقي وكفاكِ لعباً معي فأنا أكره الاستغماية لأنني لا أطيق البحث عن أحد، أفيقي ولنلعب معاً نحن الاثنين فقط،

لم يقابل سوى الصمت المطبق على الغرفة. أنّ أنيناً حارقاً وقال بصوتٍ خفيض:

- إلى متى ستمارسين سياسة الصمت؟ ألا يكفيك اثنان وعشرون سنة من السكوت؟ ألم يأكلك روتين الصمت؟ إذن سأحدّثك أنا لأنني لا أجيد السكوت مثلك وأنت استمعي فقط وبعدها انهضي وسامحيني وقبل ذلك أخبريني من ذاك الرجل؟ أخشى أن أطلب منك السماح

لخياناتي ولا أسامحك على خيانة كبرى كهذه، أخشى حينها فقدانك للأبد.

حين أتذكّر محبوبتي نسرين يرقّ شيء في صدري لا أدري سرّه، الفراغ الذي أحدثه بُعدها جعل الأرض خالية إلا منها، كان الفراغ في فؤادي كبيراً فلم أستطع نسيانها، وكذبتُ عليكِ حين أخبرتكِ بأنني نسيتها، الحب الأول لا يُنسى مهما حاولنا نسيانه، يبقى في صندوق الذاكرة يطلّ علينا بين الفينة والأخرى، كلّما زارني شوقٌ إليها تحوّل إلى غضبٍ شرس نحوك فصرتُ أحمّلكِ ما لا طاقة لكِ به.

غابت عني منذ تلك الليلة _ليلة الخذلان_ التي رأيتها بها وهربتُ حينها منك إليها فهربت مني إلى ذاتها. وعادت بعد سنواتٍ من الضياع معك لتخبرني بأنها لم تستطع نسياني، فللشوق أنياب كما للحنين مخالب، ضممتها إلى صدري في دكاني بعد أن أحكمت إغلاقها من الداخل خشية أن ترانا العيون وأخبرتها بأن العين لا ترى سواها. فأنا حين فقدتها فقدتُ قدماي السير إلى غيرها، كنتُ مسترسلاً في الكذب وكما أكذب عليكِ كذبتُ

عليها ولكن الفرق بأنّها صدقّتني فيما كنتِ تشكّين بصدقي، لذلك كنتُ أكرهك لأنك تفهمين ما يدور في خلدي.

بلّغتها أشواقي وطلبتُ منها العفو والصفح وفتح نوافذ الحب وباب القلب لنكرّم العشق بلذّة الوصل، ولكنّها آنذاك ابتعدت عن أحضاني وقالت (أتيتُ لأخبركَ باشتياقي لك بطريقةٍ تجعلك لا ترى سوى درب واحد يوصلك إلى بيتي، يا حبّ عمري الأول أنا طُلّقت من زوجي منذ قرابة ثلاثة أشهر، لم أستطع الحياة مع غيرك، كرهته منذ اليوم الذي مارس فيه طقوس حبّه على جسدي، تطهّرتُ منه باكيةً وأنا أستغيث المولى أن يجعله لي حراماً ويجعلك لي حلالاً، وها قد استجاب دعواي بعد عشر سنين من الفراق، فهلّا أذبت المسافات القصيرة بيننا وصنعت من الودِّ حبلاً تعبره إلى بيتي لتشرب القهوة مع والدي في شرفة منزلنا لأكون لك حلالاً ولغيرك حراماً).

وقفتُ مشدوهاً بما قالته، أأهدم بيتا لبناء بيتٍ آخر؟ لحظة قليلة لأستوعب ما قالته أرى شمعة الشوق تنطفئ رويداً رويداً، بتّ حائراً مشوّش التفكير خائفاً منها أن تسلبني إرادتي دون إذن مني فتسرق القلب

ويهرول لها الجسد، خشيت على نفسي أن تلفظ الحياة معكم وأترككم بلا معيل لكم ولا سند، فأنا إن وافقتها لن أعدل بينكما سيكون لها بالطبع الحصّة الأكبر من قلبي ومن جسدي ومني ككل، سأكون لها حلالاً ولغيرها حراماً.

طال سكوتي فانتفضت مذعورة كقطّة سجينة مع رجلٍ ظالم، طالبت بفتح باب السجن لها أو الدكّان، فتحته على مضض وأنا شارد الذهن فاتح ثغري أبحث في قاموسي عن كلمة تطفئ لهيب كلماتها اللاهبة. وقفت على بابي واستدارت إليّ بابتسامتها اللطيفة قائلة (إن وافقت على طلبي تعال إليّ ولن أسرد عليك عتابات لا تنتهي، تعال ولن أبحث عن زلّاتك كي لا تتسع فجوة الغياب بيننا، فقط حدّثني عن شوقٍ نما ببعدي وازداد بحجم ما مضى من السنوات الماضية). وغادرت وغادر القلب وراءها يتوسّل إليها العودة، فيما بقي العقل مكانه هادئا وديعاً.

هي انتظرت وانتظرت وطال البعد وطوته الأيّام وانطفأت بيننا أحاديث الغرام، ومن وقتها لم تقترب طرقنا من بعضها، أتعبني الشوق إليها فكنتُ أزور جسدك في الليل مغمض العينين أفتّش عنها وأرسم على جسدكِ

صلاة حبّ أختمها بقبلة لها ولم ينته الشوق فشعرتُ بدقّات قلبي تهرب مني لتصل إليها. فكنتُ أهرب إلى حارتها وأختبئ في زقاقها الضيّق كالمراهق، أفتّش في عيون المارة عن عينيها وأختبئ خلف الجدار إن لمحتها يوماً. المراقبة قاتلة إن كنا في شوقٍ لعين، أراها تقترب فأعود للاحتماء خلف الجدار، كيف ألاقيها وصمتي الطويل مشبعٌ بالكلام.

أدركت حينها أنها ستبقى ما بقي العمر لي حراماً لأنني زوج بالحلال لغيرها أعيش، وعدتُ إلى البيت البارد كما تسمّيه أنتِ، أتحسس الدفء فيه ولا أجده لأن اشتياقي لها يفقدني لذة الجلوس معكم. كلّ على ليلاه يغني في هذا البيت وكأننا أغراب لا نلتقي إلا على مائدة الطعام، لا نعرف عن بعضنا سوى أننا بخير.

حاولتُ نسيانها ولكنّ الشوق إليها كان معقّداً لم أفهمه سيطر على مجمل حواسي وقتل الحبّ لغيرها وكاد يقودني إلى الجنون.

لم عادت بعد عشر سنوات؟ ألتزيد إحراقي أكثر؟ أم لتزيد كرهي لكِ أكثر؟ كنتِ حجر عثرة في طريقي من اليوم الأول الذي هربت فيه نسرين من بين أصابعي، أيقنتُ بعد غيابها عني بعامٍ كامل أنني مخطئ في ظني

فهي لم ولن تكون لي، وحدكِ يا رجاء كنتِ لي كما أريد ولم أكن لكِ كما تريدين. عدتُ إليكِ أحثّ الخطا كطفلٍ مخطئ ينتظر عقابه.

عاقبيني في كلّ شيء ولا تعاقبيني بالصمت، فالصمت يؤلم أكثر من الكلام البارد يا رجاء. أدركتُ بعدها أنني أرغب في النومِ معكِ لأنّك رجاء ولست نسرين. بتّ اشتاق إليكِ لأنسى داءً اسمه نسرين وبالفعل كنتِ الدواء دون أن تعلمي بذلك، تفعلين ما أرغبه بصمتٍ ينهش قلبي ومن ثم تستحمين مني وكأنني خطيئة مارست طقوس الذلّ على جسدك.

عرفت بعدها بأنك كنت تعلمين بما يدور وراء الكواليس ولكنّك صامتة كشجرة في خريفٍ بائس لا تقوى على الاعتراض، استحلفتك بخالقك (لم سكتّ؟) قلتِ لي حينها جملة لم أفهمها وفهمتها الآن (عندما علمت ما يدور كنتُ قد نسيتُ كيف يكون الانهيار لأمثالي، لذا بدلاً منه تماسكت كي لا أفقد بيتي البارد، بيتي البارد يا مالكِ الذي لم أشعر بدفئه منذ أن وطأت قدماي عتبته).

كنتِ على حقّ في ذلك، أنا من جعل البيت بارداً لا حياة فيه، فنشب ماجد كما نشبت رزان في بيت لا روح فيه. ولكن أمنيتي الآن أن تعودي لإشعاله فتجعليه أكثر دفئاً.

(كدمية أعطوها لصبيّ صغير كي يلعب بها فينسى أمر لعبته القديمة التي أضاعها سهواً فأهمل الجديدة ثمّ كسرها بعد أسابيع قليلة، لا هو عاد إلى لعبته القديمة ولا هو بقادر على ترميم ما كسره في لعبته الجديدة، ولم يقتنع بما لديه فغدا مهموماً حزيناً بين لديه لعبة مكسورة مركونةٍ على رفٍّ عتيق لا يقوى على النظر إليها مخافة عينيها الرماديتين ففيهما من اللوم ما يقتله ولا يستطيع الاقتراب منها خشية أن يجد القديمة فتتهمه بالخيانة والتقصير في البحث عنها).

كانت هذه العبارات هي أوّل ما خطّت به رجاء دفترها وكانت رزان مستندة إلى ظهر السرير الكبير في الغرفة الباردة التي ما شعرت رجاء يوماً بدفئها، طوت قدميها وألصقتهما ببطنها ووضعت الدفتر أمامها تعيد قراءة ما كتبته وما روته والدتها من كلامٍ كانت تخبرهم به بصمتٍ قاتل فتترجمه على الورق لتحترق الكلمات من لهيب عبراتها.

(كلنا نعرف بأن الأمان هو أعظم درجات الحب وأفضل شيء يمنحنا إياه من يحبّنا "الطمأنينة"، منذ أن دخلت قدماي عتبة هذا البيت الجليدي لم أشعر بالأمان ولا بالطمأنينة، لم أشعر يوماً بأنني أنتمي إلى روح هذا

المكان، حتى من أنجبتهم من رحمي هم غرباء عني لا أعرف عنهم سوى أنهم بخير، حتى هذه لا أعرفها عنهم. هو دائم الترحال إلى أخرى غيري أشدّ مهارة مني بالحب ولكن ما ذنبي أنا إن كان قد سرق منّي نضارتي وترك لي شيخوخة الروح التي مهما كان عمرنا صغيراً ستقتل فينا كلّ نبض حيّ).

(لم أكن أودّ من الحياة شيئاً سوى أن يكون لي، لي فقط وهذا حقّ من حقوقي ولا أريد شيئاً آخر من هذا الكون الكبير، لكن في نهاية المطاف الحياة تتغيّر وتفعل بنا ما تريد والأمنيات تتبخّر، فكان للجميع إلا أنا).

(أحببتكَ يا حبي الأول، كنت أشعر بك رغم المسافات بين قلبينا، أراك في التفاصيل الصغيرة التي تحدث معي، في الرسائل التي أكتبها، والأغاني التي أرددها والأمكنة التي أهرب إليها منك).

(ستبقى بعيداً عن قلبي، قريباً من عيني، فبينهما شمسك التي تغيب وقمر يضيء بوهج حبّ كان طاهراً يوماً).

(الحب لا يطلب كما الاهتمام، إما أن يتواجد بناءً على رغبتك، وإما أن ترحل بإرادتك).

اختنق ماجد بوجود كلّ من خالته وخاله إلى جواره، يريد الانفراد بنفسه والهروب من الجميع وهما يحاصرانه خوفاً عليه من دمعٍ يغتال شبابه، مع أنهم كانوا طوال تلك السنين الأبعد إلى قلبه مهما ملأت العبرات الوجه الحزين.

وقف وتمنى لو يضمّه صدر مالك الآن ليبكي كما لم يبكِ من قبل، ولكن من أين له بالرحمة وهو من علّمه القسوة ورسم له الطريق فأكمله بمفرده. اتجه إلى الغرفة وطرق ثلاث طرقاتٍ متتالية ونادى والده بصوتٍ عالٍ كي يفتح له الباب. استجاب مالك بعد تفكير عميق وشرود استدعيا يد ماجد أن تطرق طرقتين متتاليتين، فتح الباب على مضض وابتعد عن الطريق ليدخل ماجد دون أن ينظر إليه وكأنّه غير موجود في الغرفة، واتجه إلى بطلة البيت الكبير، تخطّى والده ليقف أمامها وجلس أمام سريرها على ركبتيه ثمّ أخذ يدها بين يديه يلثم كفّها لتسقط دموع قلبه من تحت نظّارته الطبيّة، خلعها ووضعها على الطاولة وشرع ينتحب بصمتٍ ظلمه وهجره إياها، ومن بين عبراته الصامتة صرخ قائلاً لها:

- أفيقي يا أمّاه وعهداً عليّ أن أكون رجلكِ وأضمّد الجراح النازفة، لن أنكأ كما كنتُ أفعل من قبل بل سأداويك ولو على حساب سعادتي.

ضمّ يدها إلى فؤاده وبكى قسوة قلبه وهيمنته الصاخبة بحقّ جنّته، ثمّ ترك يدها ووقف دون أن ينظر إلى والده وقال بصوتٍ أجش:

- كنتَ كالجبل سنداً وظلّاً استظلّ به، لا أنكر ذلك، لم تعطيني ما رغبتُ به ولكنّك أعطيتني كل ما ملكته.

استدار إليه وقال:

- لكنّها أمي كانت لنا كالمصباح، أنارت لنا دروب عتمتنا ومن دونها تنطفئ القلوب، ربّما لهذا كنا في سعادة غامرة مليئة بالضحكات والبسمات من المؤكّد أن الأسرة هي السبب وبرحيلها تموت الضحكات، فهي من تلمّ عثراتنا وخيباتنا على مائدة العشاء.

تقدّم من والده ونظر في سواد عينيه قائلاً له:

- لا مثيل لكَ ولو بحثتُ فوق الدهر دهراً، كنت طوال عمري جيشي الوحيد وقائدي الأعظم، ولكنّها أمي يا والدي.

سكتَ ماجد ونظر إلى الأرض يمسح عبراته:

- لكنها أمي يا أبي، أمي التي ما كنتُ لها ابناً بل كنتُ ندّاً وسارعتُ لمحاربتها والسخرية من أسلوب حياتها، لمَ لم تخبرني بأنني ابن عاق لا ينفع؟ تركتني في ضلالي أرسم درباً بعيداً عنها.

ضمّ مالك ماجداً أخيراً إلى صدره وربت على ظهره، إذ طالما كان بحاجة إلى حضنٍ يأخذه إلى عالم الحنان وقال له:

- أنا السبب فيما حصل، إذ ركضتُ وراء أوهامٍ لا حدود لها فتذوّقتْ معي متاعب الحياة بقلبٍ لم يشتكِ يوماً، عانت الألم وحدها وتجرّعت دموع الحزن، لم يرتح قلبها ولم تسعد بجواري لحظة.

ابتعد ماجد عنه ونقل بصره بين والديه، تلك الصامتة وذاك الثرثار الأحمق ثم قال بعد أن ثبّت بصره على والدته:

- إن عادت لنا هل ستغيّر حياتك من أجلها؟ هل ستكون لطيفاً إن قسا العالم عليها، وتحبّها بصدقٍ فتبكي حبّها ولا تخجل من ذلك أمام إنسان.

نظر مالك ببلاهة إلى ماجد ولم يختر جواباً يجاوبه بدلاً من سكوته، مشى ابنه إلى الباب ثم تذكّر أمراً، فعاد واستدار ليواجه والده ثم قال بحسرة النادم:

- الندم يأكلنا ولكن لمَ لا نعترف بهذه الأمور إلّا بعد فوات الأوان؟ لمَ لا نشعر بقيمة ما نملكه إلّا بعد خسارته؟ ظننا بأننا أبطال الرواية لا نموت، لا نتألم ولا نشعر، ولكننا اكتشفنا بأننا نكذب على أنفسنا فنحن نموت ونتألّم.

أشار بسبابته إليها وصدح صوته عالياً:

- هذه الراقدة في سريرها لم نشعرها يوماً بأنّها إنسانة ولها حقوق الابن والزوج، أضعناها يا والدي، نحن من فعلنا بها هذا.

لم يستطع مالك السيطرة على نفسه فصاح بغضب:

- من أضاعها؟ أخبرني من؟ من طلب منها الخروج من المنزل هائمة على وجهها، لا نعرف أي مسار سلكتْ ومع من كانت في السيّارة؟

اقترب من ماجد وهزّه من كتفيه وهو يزمجر غاضباً:

- لم تكن وحدها في السيّارة، كانت مع رجلٍ... كان معها رجل غريب لا نعرفه، أمك.

قاطع كلامه ماجد بعد أن نفض يديه عنه وصرخ:

- إياك أن تلفظها ثانيةً، لا تشوّه سمعتها وهي على سرير الموت، لا تقبّح صفاتها وهي تقترب من الموت، فلا تقتلها بكلماتٍ قاسية ولا تجهز على ما بقي منها، إن لم تمت الآن، فستموت بكلامك هذا وسيموت القلب من الحزن، فهي أطهر نساء الأرض، أرجوك لا تقتل ما بقي فيها.

هجم عليه وأمسكه من تلابيبه وصاح:

- أأصدّقك أنت؟ أم كلام الطبيب الذي قال...

فقاطعه دخول الطبيب إليهم مسرعاً يعنّفهم على صيحاتهم وصراخهم العالي، طالباً منهم مغادرة الغرفة وليتشاجروا في أيّ مكان آخر.

رفض مالك أن يبعدوه عنها وامتثل ماجد لأوامر الطبيب وهو يرمق والده بنظرة لومٍ اخترقت جسده وخرج لا كما دخل.

اقترب الطبيب من مالك طالباً منه المغادرة، نظر إليه بغيظ وهو يتأمل هذا المعتوه الذي يريد أن يسحبه إلى الخارج ويبعده عنها:

- سأبقى معها ما بقي النبض ينبض على يسار صدرها، وإلا فسآخذها إلى مكانٍ آخر لا يفصلني عنها متر واحد.

استجاب الطبيب لكلماته المتهدّجة بعبرات خرساء، ولكن قبل خروجه هدده إن سمع صوتاً واحداً مرتفعاً أو صيحةً واحدةً فسيطلب من أمن المشفى أن يزجّوه خارجاً.

امتثل لأوامر الطبيب بإيماءة من رأسه يخبره فيها أنه امتثل لتهديده، لا يهمّه الآن شيء سوى بقائه بجانبها، أيقرّ الآن بخسارته إياها؟ لا، من غير

المعقول أن يخسرها الآن، عليها العيش مجدداً ليعوّضها عن كلّ قديم فات، عن حبّ نسرين وعن حبّه لقريبتها، من كانت؟ آه إنها سوسن، تلك السوسنة البرية ابنة خالتها، على عكس الجميع فقد كانت تزهر في فصل الخريف وتختفي في فصل الربيع، تشرق في المساء وتغرب في الصباح.

جاءت إليها بعد سنين كثيرة من الزواج فكانت لها حياتها الخاصة التي لا يعرف عنها أحد. سوسن تلك المرأة الأرملة الهادئة المتحفّظة على رزانتها لا يُعقل أن تستضيفه في بيتها وتداعبه ضاحكة مستهزئة بقلب رجاء.

جلس على الكرسي وهو يتذكّر مرارة تلك الذكرى التي قادته إلى وحلٍ من الرزيلة، رآها في بيته، وعلى مائدة طعامه مرّتين، وفي الثالثة لم تطق صبراً فبدأت بنشاطات الإغواء.

هذه المرّة لم ينظر إلى عيني رجاء المغلقتين، وإنّما نظر إلى الأرض خجلاً من اعترافٍ سيحكيه، ومن وحلٍ غاص فيه بكلتا قدميه فعلقت به الأدران تطالبه بتنظيف ما خلّفته تلك العلاقة الآثمة، وقال بعد صمتٍ هزّ كيانه وارتعدت أوصاله:

- كانت عيناها تتبعانني في كل خطوة أخطوها، نظراتها تراقبنني أينما توجهتُ وحللتُ، لا أعرف لمَ تدخلين أفعى كهذه إلى منزلنا وأنتِ النقيّة من الآثام؟ في زيارتها الثانية حاولت التقرّب مني بدعوتي لعشاءٍ لكلينا لا مكان لك فيه، في البداية اعتقدتُ بأنها تريد إيقاعي في مصيدة لتتصيّد قبولي بناء على رغبتكِ أنتِ في التقصّي عني والإيقاع بي، ظننتُ من شدّة غبائي بأنّك تتسللين خفية إلى هاتفي فتفتّشين في كلّ اسم وتبحثين عن خيط الرذيلة بداخله. ولكن اكتشفتُ فيما بعد بأن الأمر كان لكِ محايداً وكأنّكِ تشاهدين فيلماً تتوقين لمشهده الأخير.

أيعقل أن يكون رقودك هنا هو المشهد الأخير يا رجاء؟

ارتعدت مفاصله، لا يريد نهاية لهذا الفيلم، يريد العودة للبداية، بداية تنشأ من جديد وتكون النهاية فيها سعيدة، فلا بداية دون نهاية.

- في الزيارة الثالثة أعطتني ورقة مدوّناً عليها عنوانها وهاتفها وطلبت مني بغمزة عينٍ بنيّة كجبال شامخة مغطاة بكحل الليل أن

أهاتفها دون تردد، سال لعابي وأنا أرى امرأة متحفّظة كهذه تطالب بزيارتي إليها، خبّأت الورقة بعيداً عن يديكِ وقمتُ بالاتصال بها من الدكان كي لا تعرفي شيئاً وأكون بعيداً عن كلّ شبهة، يا إلهي كم كان صوتها رقيقاً فيه من الأنوثة ما يطغى على نساء الأرض قاطبة!! وتوالت الاتصالات فيما بينا بدون حرجٍ ولا تكلّف. كانت جريئة معي وكنتُ لعوباً معها.

إلى بيتها أخيراً ذهبتُ بعد إلحاحها المتزايد وشكواها المستمرّة من وحدتها، كانت ليلة حميمية غبتِ عن بالي فيما حضرت نسرين بجسدها الطويل، فوجهها أراه في جميع النساء اللائي أعبر أجسادهنّ، ووحدها من امتنعت عن العبور إلى جسدها، امتنعت عن الحرام بحلال لا سبيل له، لذلك مازلتُ أتمنّاها كي أطفئ بها رجولتي ومن المحتمل أنها لو سلّمتني جسدها لكنتُ أنكرتها بعد الليلة الأولى، دائماً نحن نتوقُ لليلة الأولى والحبّ الأوّل، للقبلة الأولى واللمسة الأولى، وكلّنا نهرب مما بعدها، من الفراق الذي يمحو ما سبقه وتبقى لنا بعض الذكريات التي نخبئها في

خزانة ذاكرتنا ونبكيها كلّ ليلة يزورنا فيها الحنين والشوق القديم الذي لا مناص منه.

لنعد إلى سوسن وكفاني التحدّث عن نسرين، آه يا نسرينتي يا لؤلؤة لم أشعر بها، نسرين يا لعبة القدر.

كنتُ أروح إليها وأفرح لزيارتها إياكِ، تذهبين إلى المطبخ لإعداد الضيافة لها وأنا وإياها نجلس في جلسةِ سمرٍ وحبٍّ متعانقين بالكلمات لا بالأجساد، وحدك الغريبة في البيت الكبير ولا تعرفين ما يحدث على أريكته وبين جدرانه، أحببتُ لعبتها هذه، وما إن أصبح في منتصف اللعبة حتّى يتبيّن لي بأنها ماهرة في الألعاب القذرة، فبيتها يحتوي رجالاً ونساء واعترضتُ على حياة كهذه تحياها، فضحكت بملء فيها، وقالت بمرح امرأة ذكيّة لعوبة:

- كلّما ازداد العدد زادت اللعبة شهوةً وجمالاً.

- ولكنني يا سوسنتي أعشق التفرّد.

- لا تكن أنانياً، فهذا الجسد لم يخلق لك وحدك، كما أني لستُ سوسنتك، أنا أهب الجميع موهبة منحها الله إياي.

- هل منح جسدك لجميع العابرين تسمينه موهبة؟
- أجل فهو يسعدني ويسعدهم.
- أنا رجلٌ شرقي وأكره أن تصل يد غيري إلى جسدٍ أرغبه.
- افهم يا مالك، قالب الكعكة يتقاسمه الجميع.
- ولكن يد واحدة من تقطعه، فإن رغبتِ أن تكوني كعكة، يقطعك رجل واحد ويتقاسمك عشرون، فأنا أريد أن يكون من يقطع.

اعتراها سكون الليل المفاجئ، تلملم بقايا كبريائها لتسحقني ولكنني كنت الأسبق حين بصقتُ في وجهها، آمراً إياها بعدم زيارة منزلي وألا تريني وجهها مرّة أخرى.

هرعتُ إليكِ حينها خائفاً على بيتي من لسانها القذر، خشيت أن تخبرك بأنني واحد من زوّار بيتها الموحش، ولكن غاب عني بأنها لن تجرؤ على البوح بأسرارها بأنها أشهر قوّادة في ذاك المكان.

ابتلعتُ حينها ريقي بصعوبةٍ وأنا أخبركِ بصعوبة ومهدداً إياك ألا تدخليها البيت ثانيةً، كنتِ تسألينني كطفلة صغيرة بريئة وتجمّلين صفاتها أمامي.

(طيبة القلب يا رجاء، والله لأنت الطيبة ولا تعرفين ما يحدث وراء الستارة) لم أصمت مثلك، هرعتُ أضرب الباب بغضبٍ عارم، بقبضتي التي كوّرتها رحتُ أضرب الباب وأهددك أن لا تدخليها مهما كان الأمر.

احتميتِ مني بالجدار وألصقتِ ظهرك إليه ويدك على قلبك خائفة من غضبي. حين لمحتُ الخوف يطلّ من عينيكِ تركت الباب هارباً من جحيم صمتك، لكنّكَ وقفت في الباب تطلبين مني أن أعطيكِ تسويغاً كي لا تزدحم الأفكار الخاطئة في عقلك، صرختُ بكِ (تجنّبي غضبي يا رجاء ولا تجادليني، ابقي في صمتك ولا تحادثيني) وصفقتُ الباب خلفي ألعن هذيانك كما ألعن سوسن ألف مرّة، لمَ لم تخلق جميع النساء طاهرات ونقيّات مثلك ومثل نسرين؟

أعادتني كلماتك إلى الحياة من جديد، (أناشد الله أن يغرسني في فؤادك كغرسة صامدة لا تصلها أعاصير الرياح ولا تموت من الظمأ، فأين

الهروب منك وكل الدروب تفضي إليك) إذا كان صمتك يرديني فإن كلماتك تجهز عما بقي فيّ، ربّما لأنكِ تجيدين بامتياز تصغيري وتحقيري كأنك على علمٍ بحياتي الشيطانيّة.

سعيتُ جاهداً إلى تجنيبك الألم ولم أسعَ لأجد السعادة لكَ، فسامحيني على أخطائي وإن كثرت بحقّك واغفريها.

كنتُ في حزن شديد لأن المرأة التي أسكنها لا تشبه المرأة التي تسكنني، فحاولتُ وحاولت بجميع الأساليب نسيانها لكنّها وصمت قلبي بمشاعر لم أقدر على فصلها من جسدي، طبعت على قلبي بمداد دمها شعار حبّ خالدٍ لا يموت إلا بموتي.

عدتُ إليكِ في تلك الليلة وأخبرتك بهدوء بعد أن مسحتُ على شعرك بحنانٍ تائب (لا أريد للخيبات أن تفقدني إيّاكِ، ولا للحزن أن يشوّه حبي في حياتك، لا أريد للخوف أن يسرق لحظات الطمأنينة من قلبك، ولن أدع اليأس أن يقف حائلاً بيننا، لا أريد منكِ أن تكملي حياتكِ بطريقة خالية من الشغف وأتمنى العيش معاً عمراً بأكمله ببهجة وحب) وعانقتك تلك الليلة بقوّة حبّ طاهرة كما أعانق نسرين.

مسحت دموعها بكفّ يدها ووقفت أمام النافذة تقرأ ألماً ما كتب لها، لكن ضاعت الكلمات في حضرة الغياب واجتمعت لها لتقف احتراماً وكأنّها تعني حبّاً كان أو وهماً، لم يكن حبّاً بل كان سراباً زائلاً زال من بداية الزواج. مالت برأسها إلى النافذة وأغمضت عينيها تبكي وحدتها في هذا الظلام القارس، تنتحب خوفاً على والدتها وتبكي بُعدها عنها، عادت إلى السرير وجلست على الحافة وفتحت الدفتر ليسطّر لها كلماتٍ تتراقص وهماً على صفحاتٍ مليئة بعبراتٍ ناشفة.

(استحلّ جسدي وأباح قدّسيّته ثمّ تلا أشعار الحب والغرام وبعدها كان الوداع بارداً وكأنني ما كنتُ بين يديه يلهو بي، أشعل سيجارته وهو يقف أمام النافذة فلملمتُ بعضي ونظرتُ إليه، ما بال القلب يشتعل؟ أمن سيجارته الخرقاء؟ أم من وداعه البارد؟ هل استحال قلبي إلى رمادٍ وجسدي إلى خراب؟ لم يبدِ أيّ ردّة فعلٍ على وجودي معه في زمهرير غرفته وكلّ ما حدثَ من حروبٍ كانت بداخلي أنا، فلماذا أقاتل حدثاً عظيماً يحدث في قاع قلبي وهو أشدّ مني قوة وفتكاً؟ وفي النهاية انتهى الأمر بي أن أكون حرفاً على الهامش في رواية أحدهم).

(أوّل مرة ينام خارج المنزل وتركني في وحدتي أعاني، أخبرتهُ برسالة "لا أستحقّ النوم وفي قلبي كلّ هذا الحزن"، لكن هاتفه كان مغلقاً وكأنني كتبتها للعنوان الخاطئ).

(إن تتبعت أثره ذات ليلة حبّ وساقني القدر إلى عنوانٍ بعيد عن صواب حياتنا أيستردّني أحدهم بدلاً عنه؟ أيمسح دمعة في دجى الليل ذرفت ويأخذني بلهفة الأحضان؟ العنوان لم يتغيّر ولكن القدر بارع في إنشاء المصادفات وجعل القضايا أحياناً لصالحنا، وبارع أيضاً في إحداث الفراق والهجر وجعل الأمور تمشي عكس ما رغبنا به).

(حين أعود إليكَ أعود وفي قلبي خيبة جديدة لا يراها أحد، كسرت الأمل في عودتك).

(ثمّ أيقنتُ بأنني استهلكتُ نفسي حين أفنيتها في دروبٍ مشيتُ بها وحدي ولكنها لا تعيدني إليه).

(إلى متى ستبقى تعبر جسدي كسائح بسيط مرغمٍ على زيارة معالمَ لا تنفعه بشيء).

في كلّ ورقة خطّت ذكرى مؤلمة بعبرة انسكبت وحدها، عبرة لم يطفئها سوى لهيب الكلمات، فقرأت ما سطّرته وغطّت وجهها وانتحبت بعد أن قرأت:

(الكلمات التي أكتبها هنا لا تصل إليكَ، تنمو في القلب كخيبة طفلٍ لم تحمل الريح طائرته الورقية، ثم تخبو كطفل اشتاق إليها بعد أن حملتها الريح بعيداً).

لا تعرف أين هي، ولكنّها تعرف بأن هذا المكان أنقى مكان تطؤه قدماها، تركضُ في سهولٍ خضراء بثوبٍ قصيرٍ كخضرة الأشجار وتبتسم لمالك وتتأمله برماد عينيها، ناداها من خلف الزجاج الشفاف بدمع العين يبكيه، اقتربت منه ووضعت كفّها على الزجاج، كان الحاجز يمنعها من التلاحم معه، فقدت كلّ الاحتمالات لعودته، أدركت الآن بأنّها كانت مغفّلة في اختياراتها، مندفعة وساذجة حين صدّقت الكلمات الأولى ولهفة الحبّ الأولى والقبلة الأولى، كانت على خطأ حين سمحت للأخطاء أن تتكرر وتنزلق من تحت يديها وقررت الانسحاب في وقتٍ جعلها آثمة بنظره، نقيّة بنظر الجميع.

سحبت يدها وابتعدت عن المكان بحزنٍ غيّر ملامحها وغيّر نظرة عينيها، فامتزج رماد بركان عينيها بليل الكحل في مقلتيها بعد أن أطفئت وانمحت الابتسامة، كانت تسمع عبارات الاعتذار تطلّ من همس شفتيه، عبارات أسفٍ وتوبة ودموع الندم في المقلتين تحجّرت ولكن لا قيمة للاعتذار بعد الهجر والحرمان، عادت إليه وقالت له ورأسها يتدلّى على صدرها:

- جفّت سواقي الحبّ ويبست أشجار الغرام، ملّكتُك القلب فكسرته، أتجبر كسره باعتذار؟ كنتُ أصدق مما تتوقّع وكنتَ أكذب مما توقّعت.

اقتربت أكثر ووضعت رأسها على الزجاج لا تريد الاستيقاظ من حلمٍ أعجبها ودموع الندم تغرقه.

- مضيتَ هكذا في دربك دون أن تبالي بي بعد أن حفرتَ في صدري ثقباً مؤلماً رافقني طيلة حياتي، كان يؤلمني هذا الثقب ولم تستطع رتقه كل إبر الخياطة في العالم.

طرقتْ الباب بيدها تناديه أن يكفكف دمع الأسف ويسمعها لعلّها تفيق فيعانقها عناق الأحباب، بكت بين ناظريه وأسرفت في العبرات حتى اختنقت فمسحتها بكفّ يدها وأدارت ظهرها إليه، استندت بظهرها إلى الحاجز الزجاجي ووضعت يدها خلفها تحدّثه دون أن يسمع من همساتها شيئاً.

- شعرتُ بالاكتئاب حول ما تفعله، ظننتني بصمتي هذا أفعل شيئاً جيّداً ولكن حين لم تتحرّك من مكانك آثرت الكلام على الصمت، فبدأت في

الركض باتجاهك ولكنّك كنت سريع الركض، تقفز من شارعٍ إلى آخر وتعبر من قلب إلى قلب جديد، ولاحظتُ بأنني مازلتُ واقفة لم أتحرّك إنشاً واحداً. لم أخشَ طول الطريق ولا عري أقدامي ولا ظلام الليالي، ما خشيتُ منه أن أصل إليك خائرة القوة منهكة الجسد فأرى سراباً لا وجود لطيفك فيه.

ما حدث ليس من الرحمة أن يمرّ بهدوء وليس من العدالة أن يتكرر، فجراح الفؤاد زادت وصعبت مداواتها.

عادت واستدارت إليه وقالت وهي تبحث عن يده لتمسك بها... كان قريباً منها بعيداً عن جسدها، يفصل بينهما حاجز من زجاج سميك.

- لماذا قتلتني ولم تداوني؟ اعتذارك لي يشبه إيمان كافرٍ في يوم وفاته بعد أن لمح أهوال الموت تقذف به، لن أغفر فليس لك عندي توبة ولا تعد لمحرابي تصلّي فيه، فصلاتك غير طاهرة ستلوّث قلبي العقيم بكَ. لم يعد هناك ما يضيء القلب فقد انطفأ كلّ شيء. كلّ شيء يا مالك.

لم يرهق حسّان شيء كما فعلت أفكاره وكما ترجمت توبته، منذ أن قرر أن لا يهتمّ بأمرها جاءها وهي في غرفة بيضاء تحتل كلّ أفكاره فبات دائم الشرود وعقله مرتبط بها، يشتاق إليها الآن أكثر من أيّ وقت مضى، ولكن يجرحه عدم حفاظه عليها، بكى في أوّل الأمر ثمّ بكى عندما تذكّر خذلانه إياها، يخشى البعد عنها والاعتياد إن بقيت هنا، فالإنسان يعتاد المكان الموحش أحياناً حتى يصبح جزءاً من المساحة الرماديّة. المكان ومساحة رمادية يغطّيها السواد، آه آه وأيّ مكان هي فيه، مشفى بروائح تخدير تعبق بها الأروقة والممرات الضيّقة.

اقترب من الباب وحاول أن يدير قبضته، لكن هناك من يمنعه فهو لا يخاف مالكاً ولا يخشاه وإنما يخشى عينيها المغمضتين أن تعذّبه وتقتل عاطفته ومشاعره وتحرّره من جموده وبروده. ليس لديه شجاعة الاعتذار أمامها، سيعتذر لها هنا في هذا الرواق الكبير، وتجدد الحزن في داخله بلا توقّف وبلا أملٍ وكأنّه يجد نفسه أكثر ضياعاً من قبل وهو لا يريد الاعتياد على وضعه الجديد.

اشتغل دوماً بخيباته بعيداً عن خيباتها وأخذته حياته عنها بعيداً عن ألمها عاش عمراً على أطلال ألمه متناسياً أنّه كان خيبة لها بالوقت الذي كان سعادة لزوجته، فنحن دائماً هكذا سعادة لأحدهم وخيبة لآخر، غرق بدمعه دون أن يبتلّ جسده ثمّ هوى برأسه على الباب هامساً:

- يؤسفني جداً ألا أستطيع الحديث معكِ الآن فالسور الذي بنيته فاصلاً بيننا قد وصل عنان السماء، أعتذر لمغادرتك إياي دون ترك كلمات تطمئن قلبك بالسلام، والآن ها قد صغت ألف دعاء وردد الملائكة من حولك مجتمعين "آمين" أفلا تغفرين.

كان فراغ قلبه هائلاً بعد أن كان متخماً بالراحة والطمأنينة، طوت الوحشة فؤاده بعد أن كان غارقاً في السلام، عيناه مثقلتان بالندم فلن يفيده الصمت بعد الآن والكلام لن يصل أذنها.

نظر إلى القلوب الدامعة وكانت جميع وجوههم شابة قبل هذه الليلة والآن يرى وجوهاً مليئة بالشيخوخة _وجوه متعبة مرهقة_.

أنَّ دون أن يصل أنينه أذنها، وتأوّه دون أن تخترق الآهات جدران غرفتها، الكلّ متخبّط في بحور الندم والكل يندب حسرتها، والكل يدعي أنه آثم ولن تقبل توبته مهما قال.

كان يزرع الغرفة جيئة وذهاباً حينما رنّ هاتفه برسالة ليست بقصيرة، كانت من صغيرته، طفلة الثامنة عشرة، فتحها ليجدها قد كتبت كلمات على لسان رجاء:

(لو كنتُ أعلم بأنّك ستخلع الفؤاد وترميه في قارعة طريقٍ بلا رحمة.

لو كنتَ أعرف بأنني سأبقى ساهرة الليل الطويل أقرأ تعابير وجهك الغامضة.

لو كنتُ أدري بأنني سأستمع إلى ألحان برودك الحزين كلّ ليلة.

لو كنتُ أدرك بأنني سأبكي كل يومٍ في فراشك.

ما كنتُ أحببتك).

تلتها برسالة قصيرة "لمَ جرحتها؟"

هذا ما كان ينقصه عتاب صغيرته ولومها وتقريعها، أغلق الهاتف بشكلٍ نهائي فهو لا يرغب في سماع عبارات تقريع، يكفيه ما قاساه من لوعة على ما جنت يداه وجنى قلبه عليها.

إنّه يتألّم والألم يغرس السكين في أوصاله ويقطّع القلب إرباً، ألم القلب لا يراه أحد ولا يشعر به إنسان، أمسك قلبه الذبيح وارتمى على فراشها

الكبير، خانته قدماه وهو يلعن هذه الأجهزة المتّصلة بها، تحسس يدها ثم أخذها إلى فؤاده وحيث الألم أراحها وكأنّه يستريح من رحلةٍ طويلة الأسفار، يدها وحدها قادرة على نزع فتيل الألم من صدره وأطلق تنهيدة عذاب لم تصل لأذن أحد ولم تخترق الجدران، أمسك بكفّ يدها يلثم جروح خسارتها في هذه الحرب. خسرت نفسها ولم تربحه، إذن لمَ أشعلت حرباً خاسرة لا تحمل فيها سلاحاً، لكنها يا مالك كانت تحمل قلباً نقياً ومن يحمل القلب النقي لا يدخل حرباً من الأساس.

حاول أن يعيش معها بقلبٍ جديد ولكنه فشل، فالقلب القديم لم يتركه بل ظلّ يستخدمه فعاش تائهاً بين قلبين اثنين، بين قبوله الواقع وتسليمه به وبين ذكراه العطرة مع نسرين.

يؤذيه الكلام الكثير عن نسرين أمامها إذ غرق بدوّامة التفكير أكثر وبقلق أوجع معدته وخشي من التعايش معه، يريد الخلاص من كلّ ما يؤرقه ولا شيء ينهي حربه هذه سوى عودتها إلى أحضانه.

أتعود رجاء؟ أتعود بنفس عادة الصمت؟ أم تثرثر وتكثر الكلام؟ هل ستعاتبه على ما حصل؟ أم تراها ستؤجّل العتاب إلى أجلٍ غير مسمّى وإن تعاتبا فهل سيعودان أجمل مما كانا؟

وها هو يعتذر عن حياته كلها معها وبعدد السنوات الاثنين والعشرين عاماً يقرّ بخطئه. اعتذر عن كونه لم يكن لها رجلاً. وتمنى ألا يمر العمر من أمامه وهو ينتظر منها الصفح والغفران.

رمت الدفتر على السرير، وقبل أن تتجه إلى المطبخ تأملت النافذة المهشّمة ورياح الخوف تعبث ببابيها، نظرت إلى الأسفل وسارت بسرعة إلى المطبخ كي لا تتذكر ما حدث منذ ساعات هنا، ارتشفت القليل من الماء وجلست على طاولة الطعام، كانت الريح تعوي بصوت ذئب جائع، ذئب يتألم فلا يجد من يغيثه، أغلقت أذنيها وبكت بشدّة، هي الآن خائفة فلا أحد معها، وأول مرة تشعر ببرودة هذا البيت الكبير، برودته لم تأت من النافذة المفتوحة ولا من زمهرير فبراير بل من وحدة تعيشها أوّل مرّة وكأنّ رسائل أمّها أصابتها بالعدوى (لرجاء الحق، فالبيت بارد ولا مكان للدفء فيه.)

يداها تستغيثان ووجها شاحب، عيناها متّقدتان بعبرات الخوف والوحدة، من المؤكد أن والدها أغلق هاتفه هارباً من لومها له ولا تستطيع التحدّث لماجد بكلمة فهو الآن غاضب وسيبكيها بكلامه اللاذع، أسلوبه في الحديث إلى الجميع غير لائق أبداً، هل تغيّر هذه الحادثة القلوب فتهدأ

النفوس؟ رجا من الله أن يكون درساً للجميع فيشعروا بعده بدفء البيت الكبير وبالحب والألفة فيما بينهم.

وضعت رأسها على الطاولة وأغمضت عينيها لتتراءى لها صور والدتها وهي تتشاجر معها، لا تدري متى آخر مرة اقتربت من أمّها وتحدّثت إليها، أدركت الآن بأن ما كان بينهما أشياء صغيرة غير مرئية لها، تراكمت في داخل والدتها حتى زعزعت الأمن بينهما وتراجعت علاقتهما إلى الوراء، كان في قلب والدتها أحاديث كثيرة لا تستطيع شرحها وكانت بنظر رزان أحاديث تافهة تخجل من الحديث عنها، ولكن في نظر رجاء معضلة كبيرة لا أحد يراها سواها، تتألم على الدوام وتصمت بدافع المحبّة فقط.

رفعت رأسها وكلمات والدتها تشق عُباب الصمت (طعنتِ القلب يا صغيرتي) متى حدث ذلك؟ في أي عام من أعوام عمرها الثمانية عشرة؟ من المحتمل حين كانت تهرب من وجه والدتها كي لا تناقشها بمشاعر لا ترغب فيها، لا تريد أن تكون صندوق أسرارها فهي مخطئة في نصائح

تسردها ولا تنفّذها، امرأة عاشت الخنوع اثنين وعشرين عاماً لا تصلح لأن تكون أماً تعطي نصائح هي بحاجة إليها أكثر من ابنتها.

وبكت رزان وأول مرّة ينتفض جسدها من كثرة البكاء وصاحت:

- أنا أنثى متمرّدة ثائرة، لن أصمت العمر بأكمله كي لا أتوه كما تهتِ أنتِ يا أماه، لن أكون إمعة تمشي وراء الآخرين كذيلٍ لا يراه أحد فتدوسه الأقدام، لن أسكت طويلاً كي لا أنفجر في وقتٍ متأخّر كبركان عاش الناس حوله دهراً مسالمين ينعمون بسلامٍ واطمئنان، ولكن حين انفجر قتل الجميع برماده الحارق ولم يرأف بأحد، وأنتِ يا أمّاه قتلتِ الجميع برماد عينيك وبانفجارك غير المستأذن، فلو قلتُ "سامحينا على ما فعلناه في سنين عمرك" فهل نسامحك على لحظةٍ انفجارك هذه الذي أحرقت شظاياه قلوبنا، فلا تيتّمي القلوب يا أماه ولا تشتتي العائلة وعودي إلينا، نحن بانتظارك متى أردتِ العودة.

غاص رأسها في يديها وهي تندب وتبكي وتقول بعبراتٍ مجنونة:

- عودي يا أمي ولا تقتلي مهجة أحبّتك، ذنبي كبير حين لم أفهم صمتك، عودي ولكن لا تسكتي عن حقوقك، جادلي عاقبي ابكي اصرخي حطّمي النوافذ كسّري الأواني اصرخي مرّة أخرى اصفعي الوجوه، ولكن إيّاكِ أن تصمتي، يكفي ما حصدناه من صمتك الحزين، وسرّبي مشاعرك جميعها إلينا ولا تمنحيها لدفاتر لن يقرأها أحد.

- لا تسامحيني على غلطتي ولو بقيتِ العمر بأكمله تذكريني بما فعلت.

قالتها صفاء وهي على سجادة صلاتها في مسجد المشفى، بينهما ممر طويل وحائط كبير وباب مقفل، بينهما سرير أبيض وأجهزة متصلة، بينهما حبّ كبير ودم واحد ولكنهما بعيدتان عن قلوب بعضهما بعد السماء عن أرضها، فلا أحد يعوّض غياب الأخت، وإن رحلت فليس لها بديل.

الآن تكاتفتا في الضرّاء بعد أن كانتا متجانفتين في السرّاء، ظهرت المحبة الآن وهي على السرير غير آبهة بدموع الندم التي تغسل المآقي وتنظف الأفئدة، لو أنها أفاقت من سباتها الآن لوجّهت سؤالاً واحداً فيه تقريعٌ ولومٌ للجميع "أين كنتم وأنا بينكم؟"

دعت وتضرّعت وأكثرت من طلب الرحمة لها وللجميع، دعت لها بالشفاء العاجل لعلّها تقوم وتغفر زلّاتها الصغيرة وجرمها الكبير. نهضت بعد ذلك متثاقلة على نفسها تمشي بعرج إذ تيبّست أضلاعها من كثرة الجلوس على قدمها فأوجعتها ووصلت إلى حسان، وقبل أن تجلس بجواره رمقته نظرة قاسية مليئة بعتاب السنين، ثم أرخت جفنيها قائلة له ببرود:

- توقف عن الندم بشأن الماضي والقلق حيال المستقبل، وادع لها بالشفاء.

نظر إليها وراح يتأملها من أخمص قدميها إلى رأسها، ثوانٍ وهو يمعن النظر إلى أخته، الآن تذكر بأن الوقت مرّ ببطء شديد ولم يحادثها أبداً، الساعة الآن تدقّ الثانية صباحاً يعني أنهما هنا منذ ساعتين ولم يحدّثها البتّة، بودّه لو يعانقها فيبكيان معاً ويحزنان لحزنٍ جمعهما في هذه الليلة الصاخبة، لا يدري ماذا تخبئ له الأيام فربّما يصيبها ما أصاب رجاء في رمشة عين. ثم قالها محاولاً الحفاظ على هدوئه:

- لمَ لم تحافظي عليها من الضياع؟ أنتِ أختها والأولى أن تكوني بيت سرّها.

- ربّما حينها كنتُ ضائعة، أبحث عن ذاتي ولم أجدني، فكيف أحافظ عليها؟ كنت أركض لأتجنب الألم ولم أنتبه إلى آلامها النافرة لأنني كنت مغمضة البصيرة، ولكن أنت لمَ لمْ تستمع إلى شكواها.

- لأنني أحببتُ نفسي وبدأتُ بنفسي، فكنتُ أفعل كل شيء مقابل النفع الشخصي فقط. ركضتُ وراء أوهام الحياة وصرخات زوجي وهي تقول لي على الدوام بأنها تجلب الطاقة السلبية معها، فهي كثيرة الشكوى من كلّ شيء.

- لمَ أنت هنا إذن؟ لتجلب الأحلام والأماني؟ وهل أخذت الإذن من زوجتك لتأتي إليها؟ عاشت وحيدة تفكّر بصمتٍ وتتألم بصمتٍ، لم تجرؤ على التفكير بصوتٍ عالٍ مع أحد كي لا تهدد بقاياها في قلوبنا.

صرخ في وجهها بعد أن هبّ واقفاً:

- كفاكِ مواعظ لا تحترمينها، أنت أختها وكان الأجدر بكِ حمايتها من شرّ يقترب منها، رفضتِ سماع شكواها وبنيتِ بينكما الجدار العازل.

وقفت وراءه ومدّت يدها لتربت على كتفه، ولكن خشيت على يدها أن تحترق بجمر غضبه، فسحبتها ثم قالت بصوتٍ خفيض:

- أعترف بأخطائي وغارقة في الندم من رأسي حتى أسفل قدمي، وأيقنتُ بعد فوات الأوان بأن جميع ألفاظ الوداع مرّة، أخشى من الموت أن

يسرقها منا فهو كالحنظل في مرارته، أخشى من كلمة "فقد" حينها لن تنفعنا كل عبرات الندم وجميع عبارات الاعتذار.

أدار وجهه إليها واقترب منها ثم أمسك وجهها بين كفيّه:

- وأنا أتمنى أن تكون هذه الحقيقة حلماً نصحو منه بصحوة الفجر، وأتمنى من حلمنا أن يغدو واقعنا، لو يكفّ الليل عن العبث بنا ويهدأ قليلاً عن لمس جراحنا. لو أنها لم تتبع حماقتها وأتت إلينا وانفجرت في وجهنا لكانت في مأمن حينئذ.

ماجد كان ينظر إليهما وكأنه يتابع مسرحيّة هزلية، ينقل بصره بين الاثنين ليرى لمن ستكون الغلبة ولكن لم يطق صبراً من كلام خاله، فصرخ في وجهه معنفاً إياه:

- أتريد مني التصفيق لك؟ ما كل هذا الحنان الذي ظهر فجأة هكذا دون مقدّمات؟ أأعلنك ممثلاً بارعاً فإنك تجيد التمثيل أكثر من أي كائن عاش على هذه الأرض؟

ثم اقترب من خاله وخفتت حدّة صوته وأكمل:

- لا تضخّم الأمور يا خال ولا تعقدها، لو كان فيكما ما تتحدّثون عنه الآن لما استطاع والدي إهمالها كلّ هذه السنوات، لم تكونا سندها منذ البداية وامرأة بلا سند كشجرة بلا ثمر، يحرقون الشجرة لتمنحهم الدفء، ويحرقون قلب المرأة لينيروا به عتمة دروبهم.

اقترب حسان منه ووضع يده على كتفه وقال:

- أحببتُ التغيير الذي طرأ على حياتي بعد أن غيّرتُ أفكاري وبعد أن تغيّرت نظرتي للدنيا، فأصبحتُ إنساناً لا مبالياً، أنانياً لا يهمّني سوى نفسي وفجأة رأيت ذاتي بمنظورٍ آخر وعالم آخر. لم يلمح أحد غيري الأشياء المؤلمة التي حصلت لي فجعلتني شخصاً آخر لا أحد يعرفه.

- والآن عدتَ للشخص الأول؟ أم تراك تغيّرت لشخصٍ ثالث لأنها هنا تنام؟ لو لم تكن هنا في هذه الساعة هل كنتَ ستتوب عن هجرك لها بهذه القسوة؟ هل ستذوب اعتذاراً وحبّاً لها؟ أنا لدي وقت كثير لأتغيّر ولكن أنت لا وقت لديك.

أبعد يد خاله عنه وأشاح وجهه كي لا يرى دمعته التي انسكبت على الأرض، ابتسم حسّان وقال له:

- الوقت يسرقنا يا بني، فلا تغرنّكَ الأوقات فهي ليست ملكنا، ربّما نموت نحن وتعيش هي إلى أجلٍ غير مسمى.

الكلّ يملك في جعبته مشاعر حسرة، ولكن لا أحد منهم قادر على تصويب سهم التوبة إلى الاتجاه المطلوب، مشقّة شرح حسراتهم مرهقة جداً فالتزم الجميع السكوت.

أكبر خطأ صدر عنها أنّها كانت ككتاب مفتوح، اقترب منها الجميع لقراءتها فنفروا منها، بعضهم استهان بالسطور وبعضهم أساء فهم الكلمات وبعضهم لم يفهم بتاتاً وما كان أسوأهم من لم يستطع قراءتها.

ولكنّها كانت تتمنى لو فهمها الجميع، فهي ليست امرأة كاملة ولكنّها ليست امرأة عادية، نستطيع القول بأنها معدن نادر، قليل من الأشخاص من ينشدها ولكن مع ذلك لم يقدّر أحد ثمنها، قادرة على الحب والرغبة والتفكير والضحك والسعادة والصمت الذي لم يفهمه أحد.

هناك مثلُ يقول "في الشدائد تمتحن معادن المحبين"، في الشدة جاؤوها متناحرين متخاصمين، يلقون اللوم جزافاً على بعضهم، وينصبون المشانق في ساحات نقاشهم. وأغلقت ساحة النقاش بعد أن جلس الثلاثة على المقاعد بجوار باب مغلقٌ يلفّهم برد فبراير ويكتنفهم دمع الليل الحزين.

الجلسات المريحة، أوقات الغذاء المحددة، الوحدة التي تذوب مع الأهل، النوم القرير، الحديث المنسكب بلا قيود، الساعات الأخيرة من الليل مع العائلة، الحبّ الرقيق. هل ستفتقد هذه النعم جميعها لتذوب كهذه الليلة دون قمرٍ.

اقتربت من النافذة تتأمّل الليل فهو مثلها يمتزج بوحدتها، هو وحيد دون قمره وهي وحيدة دون رجائها، ولكن ظلامها يختلف عن ظلام الليل، فليلها أسودُ حالك كفحمٍ لا ينير وظلام الليل سيبدده بزوغُ فجرٍ جديد، وفجرها سيطول ويطول دون بزوغ.

عادت إلى غرفة والديها ولملمت شظايا الكأس المكسور، ومسحت الأرضيّة ثم جلست على طرف السرير وسرقت الدفتر بخفّة ورشاقة، تريد إكمال حزن السطور، واعتراف فات أوانه ولم يصل إلى أذن مالك، وحده من أجبرها على كتابة مذكراتها، ووحده من لم يقرأ لها شيئاً. كانت الريح تنوح وتدخل من تلك النافذة تطالبها بالقدوم إليها، خائفة كثيراً من هذه النافذة وكأنها تحمل بين يديها جراح زجاجها وتبكي طوال الليل، وتنتحب وتساعدها الريح في عويلٍ طويل ثمّ تمدّ يديها الطويلتين لتسرقها من غرفة

تختبئ بين جدرانها، وضعت الدفتر جانباً وأغلقت الباب عليها كي تقطع يد الريح المخيفة ثم ارتمت على سريرٍ لم تشعر أمها يوماً بدفئه، وهي الآن لا تشعر سوى بحرارة تلهب جسدها، عادت وتناولت الدفتر وفتحت لتقرأ ما بين السطور.

(أحبّ قوّتي هذه. مهما بددت صلابة الأيام أفراحي، ومهما مررتُ بتجارب فاشلة فإنني أحب قوّتي في سحق كل ما يؤلمني والعبور فوقه).

وضعت الدفتر جانباً وصاحت:

- هذه ليست قوّة يا أماه، هذا ضعفُ وهروب، أنتِ لم تعبري فوق حزنك بل عبرتِ فوق أشلائنا حين لفظتِ الجميع هاربةً مخلّفة إيانا بجحيم يحرقنا.

عادت تقرأ دون أن تحمل أحزان والدتها.

(حدسي لا يخطأ أبداً، غريزتي الداخلية ومشاعري ما وجدت عبثاً، فحاستي السابعة ترافقني على الدوام، ومع ذلك أجازف أحياناً بتجاهل ما يحدث هنا في هذه الغرفة الجليدية وعلى السرير الجليدي أمارس دوري

كأنثى دون مشاعر، بينما يمارس هو دوره كرجلٍ على أكمل وجه ويرحل بارداً كقطرة ماء سقطت على محيط من الجليد، يتركني أحارب قلباً ويهزمني ولو أنني حاربتُ جيشاً من الأشخاص لانتصرتُ، لكنّ القلب حليفه وجاسوس لديه، فهو أولى بهزيمتي فأفشل في حربٍ لستُ أهلاً لها، أحاول مرغمة اتباع طرق أخرى لاستمالته فأفشل في بداية الدرب).

(لا طاقة لي بأن أجاهد في ملحمة خاسرة، فأفخر بعقلانية صمتي في كلّ مرة أهمّ بالكلام، فأصبحتُ مع الأيام أقتله بصمتي وبنظرة اللوم من عينيّ كما قتلني زمناً ببروده وإهماله).

(نضبت طاقتي لأن الشرخ ازداد اتساعاً فأكل ما حوله من أفراح، فأخشى أن يسفر الكبت الطويل لمشاعري والتظاهر بأنني بخير عن اكتئاب حادٍ لا ينتهي).

لم يروها إلّا في مشهدها الأخير حين رفعت راية الصراع وشعرت بذاتها تنتصر عليهم فوقعت أرضاً خاسرة معركة لم تبدأها.

كواليسها الكثيرة لم تشفع لها أبداً مهما حاولت وفعلت، إذ كانوا يرونها نجمة صغيرة لا تُرى تتبع القمر أينما سكن، والآن وقد غابت عن نظرهم صاروا يرونها قمراً يضيء سماءهم.

العبرة في النهاية دوماً، أليست النهاية هي التي يراها الجميع ويخلّدها التاريخ ويبكونها على الدوام ويلعنون في كل خطوة النهايات الأليمة؟ أما البداية فتكون على الدوام محض مصادفة أو ملفّقة أو كاذبة، وفي القلّة القليلة صادقة وعفوية، ولكن النهايات أصدق منها بكثير ومهما كانت قاسية ومؤلمة، لذلك جاؤوها في المشهد الأخير ليشهد الجميع نهاية الفيلم، فمن المحتمل أن تُكتب كلمة النهاية لصالحهم وربّما لا يكون لهم يد في النهاية، يرغبون بأن يكونوا أبطالاً حولها يجلسون ويتضاحكون، يرقصون ويغنّون، يعبثون ويصرخون، يرددون الألحان ويلعبون، لم يرغبوا قط أن يكونوا ثانويين يحملون النعش فيدمعوا ويضربوا الصدور وينوحوا.

نظر مالك إلى النافذة وقد تجدد المطر، فتذكر رزان وجلوسها في البيت بمفردها، ما عساها تفعل هناك وحدها؟ ولكن ما عساه يفعل لها؟ فلا يستطيع ترك رجاء والذهاب إلى صغيرته، صار يقنع نفسه بأنها ستأتيه في الفجر، فلن تطيق صبراً، وما هي إلا ساعات قليلة، وسيبزغ نور الفجر، وتطلّ عليهم شمس الصباح.

اقترب من النافذة وهمس بخوف يائس:

- ألن تشرق شمس الصباح بعد كلّ هذا المطر المدرار؟

أيبكي المطر رجاءه؟ أتلتحم العبرات معاً؟ لم يشهد مطراً كثيفاً كهذا منذ بدايات الشتاء، لعلّه فاتحة خير لحياة رجاء ولعلّه نهاية غير مباشرة لتبتدئ بعدها بداية جديدة لحياة لن تكون فيها.

قال في هدوء:

- بعد أن كان يعزّ عليّ طيّ الصفحة سأمزّقها الآن، وأعاهدكِ ألا أحادث امرأة سواكِ، سأترك قوافل النساء جميعها، وأمشي في قافلتك

بالاتجاه الذي ترغبينه، سأعيش معكِ حياة فريدة لا تشبه ما عشته من قبل، سأعيش حياة تشبهك وتخصّك وحدك، فقط عودي إلى ما كنّا عليه.

وهنا انتفض قلبه، ماذا لو عادت وبها عاهة مستديمة كشلل في أطرافها مثلاً، أو كاضطراب النظر في عينيها، هل سيبقى على عهد الحبّ وفياً؟ أم سيخون عهد الوفاء ويقطّعه إرباً إربا. ربما حينها سيلفظها ويهرب منها بحجة جديدة وسيعافها من جديد. غير آبهٍ بكلمات الندم مرة أخرى.

مازالت توبته غير صادقة ومازال ندمه غير مستقر، مازالت دموعه كاذبة ولا أمل منه الآن، يريدها أن تعود إليه كما خرجت من عنده كاملة ليس بها عيب أو نقصان، يريد رجاء التي خرجت من منزله بقدميها، لا خائنة تركب مع رجلٍ لا يعرفه.

الحيرة تأكله ومن فرط التفكير بدأ يتلاشى، وهي لم تستشعر بعد وجوده في الغرفة مع أنه كان صاخباً بجانبها ولم يكن هادئاً، مشى في الغرفة ذهاباً وإياباً حتى غرق في تيه التفكير أكثر، صدره يضيق ونفسه يعلو ويهبط، خائفاً من حدوث أمرٍ يخشاه لذلك، هو غارق في القلق بأكمله. لكن

وإن حدث ما كان يخشاه فحينها سيأتيه أمان غريب يؤلمه ويبكيه، ولكن سينزع الخوف من قلبه، لأنه ببساطة معقّدة حدث ما كان يخشى حدوثه؟

وإن عادت كما يتمنى، سالمة كما تركها، نقيّة كما عرفها، فهل ستغفر له ذنوبه؟ هل ستأتمن من نسي العشرة وغاص في وحل الرزيلة؟ وإن عاد فهل ستعفو عنه؟

جلس على سريرها وقال لها بصوت منتشٍ وكأنّها قاب قوسين أو أدنى من إفاقتها:

- سأكون ثرثاراً وفياً، سأكون عصرياً ومندفعاً، متحمّساً وطفولياً، سأكون نجماً ساطعاً ومحبّاً، لن أختبئ ولن أهرب ولن أغيّر نفسي أبداً. فالمصيبة هذه خنقت فيّ مالكاً لتوقظ فيني إحساس الضمير، سأعيش معكِ بشغف وسأشعر بعمق حبّك، ولكن كوني فقط على قيد الحياة.

لا تريد لهذا الحلم نهاية، فلأول مرّة تلمح دموع تتلألأ على وجنتي مالك، خيّل إليها أنّها في بادئ الأمر بأنها دموع صادقة. اقتربت من الحائط الزجاجي ومدّت كفّها لتلتقط كفّه ولكن ما بينهما لم يدعهما يلمسان الأيادي، فالحائط ذو زجاج سميك. هو في صحراء التيه تائه وهي في أرض الجنان تنعم بالأمان.

يخيفها أن يبقى هذا الحاجز للأبد، يخيفها أن تبقى هذه الخطوط الموشومة على كفّها دليلاً يائساً لحبّها واشتياقها أن تبقى للأبد.

قال مالك بنحيب متقطّع:

- عودي إليّ لأضيئك.

ضحكت ضحكة صغيرة وقالت بهدوء:

- كما تضيء الفحم. أتريد أن تحرقني لتضيئني؟
- ما أحرقتك يوماً. سأنير لياليكِ.
- كشمعة يائسة، تذوّبني لتضيء عتمتك.

- لم تكوني يوماً شمعة ولا فحماً. كنتِ أملاً وكنتَ غبياً لم أفهمك، ككتاب طالت قراءتي له ولم أستوعب سطوره سوى في الصفحات الأخيرة.

- أهذه هي اللحظات الأخيرة بنظرك؟

- لا أدري ولكن اعرفي بأنني افتقدك إلى حدٍّ كبير. فغيابك هدّ الروح، الخوف من فقدانك جعل العالم خالياً من أيّ بشر، فلا تحرميني أنفاسك رجاءً يا رجاء.

- لمَ لم تحسن لي قبل هذا اللقاء، فالشوق بعد الفراق لا يطاق، سيزورك الحنين إليّ كلّ مساء وستبحث عن آثاري فيما حولك ولا تجدني، ستفتّش عن طهري ونقاءي في مستودع عطورك وعلى رفوف كتبك وبين حنايا ياقتك.

- يا من وهبتها نفسي والشوق إليكِ الآن يكاد يقتلني، هلّا رحمت فؤاداً ذاب من الصبر.

- لم تهبني نفسك أبداً، بل كنتَ بخيلاً في مشاعرك، كريماً لغيري، فمنحت نفسك لعاهرات الليل وتركتني ألملم بعضي في ليالي الوحدة الطويلة.

- سأهبكِ إياها حين تعودين، وسأحرّم جسدي على الجميع.

- لم أغفر بعد.

- إذن متى سيرقّ قلبك ويعفو عن الزلل؟

- الأخطاء كثيرة وتحتاج إلى عمرٍ طويلٍ كي أعفو وأسامح، فالألم خيّم في الأرجاء عتمة، والسعادة غابت كوجه جميلٍ كان مضيئاً كالشمس.

أزاحت يدها عن الحائط الزجاجي وابتعدت خطوة، ثم قالت بعتاب ظهر على ابتسامتها المنكسرة:

- أنت ... أنت سبب علّة ما أنا فيه.

- أعترف بذلك. فافتحي الباب قبل أن يتحوّل الشوق إلى قطٍّ شرس.

لاذت بالصمت، واقتربت من الباب الزجاجي مازالت ترى ثقب القفل فارغاً دون مفتاحه. عادت إليه وتأمّلته، ثم اقتربت أكثر لتهمس في أذنه:

- توبتك ليست صادقة فلا تسكب شوقك في أرجائي وإن غبتُ عنك دهراً، ولا تعد لمحرابي مدعياً صلاحك.

- رجاء يا رجاء، سأخبرك أمراً مهماً، فأنتِ الحبّ الأطهر الذي رافقني طيلة عمري.

- ورافقته أنت رغماً عنكَ ولم يكن لك حيلة سوى المشي في سراديب ظلامي، وكأنّ قدميكَ تحملانك عنوة إلى مكان لا ترغب فيه.

- أخبرتكِ بأنني نادم أشد الندم، أقرع سني ندماً منذ ساعاتٍ، كيف أخبركِ بتوبتي التي تجعلكِ لا ترين سوى طريق واحد يأتيني بكِ؟ كيف يا رجاء؟

- لا ينبغي أخذ الحسرة والندم مأخذ الجد، فلا تراقب أجهزتي، لأن المراقبة في عزّ الندامة قاتلة، ولا تتحسّر على ما جنت يداك.

لم يعد يسمع همساتها، فصرخ لها:

- المسافات بيننا قصيرة، لماذا لا أسمعكِ بوضوح؟

- لأن المسافات بين قلبينا بعيدة.

ابتعدت عنه وغاصت في جنّتها الخضراء، طال البعد ولم تقترب وانطفأ الحديث، فكلّ الطرق تؤدّي إليه وكلها مسدودة بالركام _ركام عثراته وأخطائه_.

لا يعلم أنها غارقة في الأحلام، ولكن يعلم أنها تسمعه ولا تراه، تسمع اعترافاته وهمهمات الخطيئة.

حمل الكرسي ووضعه بجوار النافذة وكأنه يريد أن يستريح منها، فكما أتعبها سنين أتعبته في ساعات قليلة، حمل هاتفه واتصل برزان يطمئن عليها من ليل يريد الفتك بها، ولكنّها كانت له كلهيب سوط يجلد ظهره، فقالت بأسى يقطّر من صوتها:

- أتعبها الشوق إليك، فلا أنتَ أتيتها ولا هي انتهى شوقها، أتعيش امرأة في شوقٍ اثنين وعشرين عاماً، ولا ينتهي نار الشوق بداخلها؟

- أدرك ذلك، فشوقها كان هائجاً لم يتوقّف لحظة، كنت أشعر بدقّاتِ قلبها تهرب منها لتصل إليّ، ولكنها كانت بارعة في إخفائها فظننتها باردة المشاعر قاسية الأحاسيس.

- شوقها إليكَ كان يعذّبها، أخشى إن عادت إلينا أن تقسو عليها وتستهين بأدمعها.

- لستُ مجرماً إلى هذا الحدّ يا صغيرتي، إن عادت فسيكون هناك حبّ أجلّ وأعظم، كنت لا أعرف أنها في نار الشوق تستعر. فصمتها طويل مليء بالكلام.

- لأنها كانت تتمناك جالساً معها، لذلك كرهت مجالسة الآخرين.

- ارحمي والدكِ يا رزان، قلبي بات ضعيفاً، فما عاد يقوى.

- هل تضطرم في قلبك نار الأسى شوقاً؟ أم ندماً؟

- كلاهما، فأنا الآن أخشى ساعات اللقاء، فكلّ دقيقة أتحسس صدري كثيراً، ربّما فقدتُ نصف قلبي وأخشى فقدانه بالكامل.

- أنا أحسدكما فأنتما ترونها الآن، وأنا لا سبيل لدي سوى اشتياق يأكل مهجتي وقراءة حنينها لك وخذلانك إياها والذي يطلّ من بين حروفها الأليمة.

صمت مالك إذ لا يعرف ما يخبرها به، خذلته أحرف اللغة العربية جميعها فامتنعت عنه. قطعت هي سكون الصمت لتحثّه على الغضب:

- أتفتقدها يا والدي؟ تفتّش عنها عبر الانتظار؟ عبر ذاتك؟ ثم في نهاية المطاف تعود حزيناً منكبّاً صامتاً، لا تعرف ما يؤلم صدرك سوى توبتك الآثمة.

- أطلقتِ جميع رصاصاتك في وجهي يا فتاة، فلتهدئي وكفاكِ تقريعاً، فكلّنا مذنبون ولا يوجد فينا أبرياء، حتى هي مذنبة بذنبٍ لم أصل إليه بعد. رصاصتكِ الأخيرة وصلت الفؤاد، فاستريحي وأريحي القلب المتعب. إلى اتصالٍ جديد يا صغيرتي أنبئك فيه بصحّة والدتك التي نأمل من الله أن تكون بخير. فبدلاً من صبّ ثورة اتهاماتك في أذني، ادعي لها بالشفاء العاجل وكوني فتاة طيّبة بارة بوالدتها.

أغلق في وجهها ورمى الهاتف على الأرض في سخطٍ وغضب، وأرجع رأسه إلى الوراء، مسح وجهه بيديه الباردتين وصرخ في صمتٍ دون كلام.

- آه... آه ... أتصل إلى أذنها؟ عاشت عمرها كله متماسكة، ولم تنهر، وأنا عند موقف واحد أنهار وأبكي كالأطفال.

قام من فوره وجلس على ركبتيه أمام سريرها، وضع رأسه بجوار رأسها، وبكى عمره وشقاوته، بكى حياته الماجنة الصاخبة بالطيش واللهو وقال بعد أن رفع رأسه:

- أنا فرع شجرة صغير في مهبّ الريح، فلا تتركيها تقطعني يا شجرتي، لا تجعلي الريح تقطع الفرع الواصل بيننا، كوني قويّة في وجه أعتى العواصف وارحمي فرعاً من الشجرة متدلّياً يحنّ إليكِ.

أدركتُ الآن بأن منزلتكِ في عمق الفؤاد، فلا تلومي القلب وما يهواه وهو الآن غارقٌ في هواكِ، أحمل إليكِ من وطأة الشوق ما لم أحمله لأحدٍ غيرك، فارحمي القلب الحزين واستفيقي.

الشوق يا رجاء آلة حادة ونحن كائنات من زجاج هش، الشوق مقصّ بارع ونحن كائنات من ورق، كفاكِ لعباً وانهضي ولا تترددي. هل أعجبتكِ لعبة الاستغماية هذه؟ أم أردت أن يكون لكِ دور مهم في حياتنا؟ انهضي الآن ووعداً مني بأنني سأمنحكِ أجمل الأدوار، فانهضي وارسمي على ثغرنا البسمات والضحكات، فالكلام المحبوس في صدري يكاد من قسوته أن يهشّم عظام الصدور لأنّه اشتياق غاضب وليس يسيراً عليّ أبداً،

اشتياق عسير يكسر الروح ويهشّم الفؤاد، فلا تموتي لأنني سأتبعك كمداً وحسرة، ومن يموت مثلي لا يُدفن ولا يُشيّع ولا يرى أحد جثّته.

غارقٌ هو في غرفة هذيانه وهلوساته الصاخبة، وليس هناك بابٌ ولا نافذة، وهواء الندم يخنق الروح فيه.

الآن أدرك حجم حنينه واحتياجه إياها، أدرك ذلك لأنّها رجاء ويريدها لأنها رجاء، فشرع يفتّش عن مفردات تصف حجم الضرر الذي يشعر به، يخشى إن هي رحلت أن ينساها على الفور ويبدأ بتتبع أثر نسرين. ولكنه لا يريد نسيانها، لا يريد نسيان من كانت له أماً وأختاً ولم تكن ابنة، كانت زوجة فقط في عرف تقاليده ومذهبه الشرعي ولم تكن حبيبة.

ربّما مع الوقت سينساها، فالكل ينسى في نهاية المطاف، لأن الحياة تمضي بنا بسرعة البرق وتجلب لنا أناساً جدد ينسوننا من كانت لنا معهم أجمل حياة، ولكنه يأبى نسيانها دفعة واحدة، في البداية سينسى صوتها لأنها كانت قليلة الكلام، ثم ابتسامتها ثم بريق عينيها ولن يستطيع نسيان صمتها الحزين كلحنٍ حزينٍ يعزفه عازف أصم، ستتساقط من ذاكرته

كرذاذ مطرٍ خريفي لا كمطر الليلة المخيف، زاد صداع الحنين وبدأ بالفتكِ به وما من علاجٍ لصداع الوجد والوله.

لحظة قليلة....

الوله... هل وصل معها إلى درجة الوله، فهو لا يعقل أن يكون مولّهاً بها وإن وصلت مشاعره إلى أقصاها كان حبّاً فقط ولم يصل إلى العشق، فالوله للعاشقين المتيّمين وهو لم يكن عاشقاً لها، كان مولّهاً بنسرين فقط ولم تصل هي إلى مرحلتها بعد. دائماً نسرين السبّاقة في كلّ شيء، وحدها من سلبت جميع المشاعر منه وتركته خاوياً بطريق رجاء تفتّش في جيوبه عن كلمة حب تعانق نفسها به ولكنها رأته فقير المشاعر، لا يملك حباً يمنحها إياه.

رمت هاتفها على السرير، والدها على حق فيما أنهى به مكالمته "بارّة بأمّها".

منذ متى كانت بارّة بأمّها، هي الابنة العاقّة التي تنفر من والدتها على الدوام.

قامت في إعياءٍ واتجهت إلى غرفتها، كانت نائمة هنا على هذا السرير وهي تحلم بها، بالتأكيد طيفها مازال في الغرفة، أغلقتها في سكونٍ كي لا تصلها يد الريح القويّة من النافذة المكسورة فلا تخنقها أو تقتلها، وارتمت على سريرها تبكي ندماً ما عاد ينفع.

كانت كلماتها قليلة، ولكن الآن هل انتحرت الكلمات؟ أم تمزّقت الأحرف أمامها؟ في كلّ مرّة تأتيها إلى غرفتها لتحادثها بودٍّ دون خصام كانت تجيبها إجابات مقتضبة، تقترب الأم فتبتعد الابنة، لا تريد لها الاقتراب وعبور الخطّ الأحمر، هذا الخطّ ما كانت تدع أحداً يقترب منه وإن كانت والدتها. مع كلّ سنوات عمرها الثماني عشر لم تكن لها رفيقة، وهجرتها هجراً طويلاً وما عوّدتها على الهجر من قبل. كانت تفتّش عنها في كلّ مكان وتجد جسداً دون قلبٍ ودون روح، لم يجتمعا معاً إلا على

الطعام أو في سهرة المساء دون تبادل الأحاديث، الكل منكبّ على هاتفه لا يصغي إليها مع أنها كانت تضع هاتفها جانباً لتحادثهم، فتنظر في عيونهم باحثة عن أحلامٍ وأمانيّ، عن أمنياتٍ وحكايات غرام، وكأنهم غرباء لا تعرفهم، فترحل بصمتٍ إلى غرفتها، تطبق بابها بهدوءٍ دون أن تحدث ضجّة في قلوبهم ولم ينتبهوا إلى أنها غادرت أرضهم في توّها، ولم يعرفوا أنها ستكون أياماً مؤقّتة تختفي بعدها من حياتهم.

نظرت في شرود إلى مطر الليل الحزين وقالت:

- الحنين يؤرقني إليكِ يا أمي، فدعي طيفك العابر يحييني، سأنتظركِ لأنني مازلت في اشتياق جارفٍ إليكِ وأفتقدكِ فأشعر بحنين لم أشعر به من قبل، شيء بداخلك انطفأ نحوي فأحاول إشعاله بنفسي، وبعدها سأعود طفلةً تعشق رضا والدتها، لن أقتنع بتاتاً بفكرة أن لا نلتقي أبداً.

كوّرت جسدها الصغير وثنت ركبتيها، ووضعت رأسها عليهما قائلة:

- إن قلتُ لكِ بأنني مشتاقة لحديث ودّ يجمعنا، فهل ستأتين في حلمٍ جديد، لا ... لا أرغب بمجيئك إليّ واقعاً لا أحلام مبعثرة.

اهتزّ الشوق بداخلها، فعبرت عبرة إلى خدّها وانسكبت على ركبتيها، فتبخّرت بحرارة جسدها الصاعدة. طوت ركبتيها أكثر وكأنها تستدفئ بمشاعرها الهائجة الغائبة عنها فترةً ليست بالقصيرة.

نعم هي تشتاق الآن لمشاعر كثيرة افتقدتها، لمشاعر اعتادت على تلمّسها، وهل المشاعر تلمس؟ بل هي إحساس يا صغيرة تشعرين بها بالفؤاد ولا ترينها رؤية العين.

غيابها خلّف حروباً مليئة بالمآسي، غيابها جعل لليل ذاكرة جريحة، يأوي الجميع إليها ويركنون الفرح جانباً، ولكن ما جمعهم الآن ليس فرحاً وإنّما حزنٌ شلّ الحياة بهم.

هي لم تطالبهم بكلّ هذا الوقت الذي منحوه لها الآن، هي فقط كانت تريد جزءاً منهم يجعلها تدفن بعضها في أجسدتهم وتعانقهم باكية. لا تريد شوقهم المصطنع الآن الذي جعلهم يبحثون عنها بفزعٍ في قلوبهم، خشية أن تكون قد تسرّبت من شقوق القلوب.

كانت تذوب حنيناً إلى معانقتهم بطريقة هادئة جداً بحيث لا يشعرون بها ولا تزعجهم بكلامها، فيطول صمتها ويطول هروبهم.

هي محظوظة الآن لأنهم آتوها طائعين مخلّفين ورائهم أوهامهم وأحلامهم، تاركين مشاكلهم الكبيرة ليجعلوها المعضلة الرئيسية، تاركين أصدقائهم وأبطالهم يتوّجونها بطلة لهم. نادمين متحسّرين لعلها تغفر الذنوب وعن قسوتهم تتوب، ولكنّها لا تريدهم الآن. كانت تريد من هذا الشوق أضعافه، إذ كانت لا تودّ سوى الاطمئنانِ عليهم وسماع صوتهم، وكم ودّت لو يفسحون لها المجال لتخبرهم بتفاصيل يومٍ واحد فقط. كم مرّة

تمنت أن تتحادث وإياهم لكنّها تتراجع في لحظتها الأخيرة، لأنها تشعر بمرارة في قلبها بأنهم ما عادوا أشخاصها القدماء. فلماذا يرقبونها الآن ويدّعون شوقهم إليها؟ فهي بالكاد غارقة في جنتها وفي أحلامٍ لا يرونها وفي مكانٍ لا يعرفونه.

كانت مريضة بهم ووصل حبّها إياهم إلى مراحله الخطيرة، ولكنّهم لم يكونوا بلسماً بل كانوا عذاباً لها وكأنّها في أعماق جهنّم، هي تراهم أملاً وهم يرونها ألماً، والآن وقد انتُزع القلب من مكانه من فرط الصمت والخنوع، والآن وبعد أن أيقنت بأنها فقدت الجميع والفقد مؤلم وغير مريح، وبعد أن أغلقت الباب وانكسر الزجاج والكأس المتطاير، بعد أن حررت روحها من جدران البيت الكبير، بعد هذا كلّه آتوها متباكين على أعتاب غرفتها، يتلمّسون المسافات ويدعون الله أن يهزم المسافة فيجمع القلوب جمعاً لا فراق يليه.

الكلّ متخبّط في مأساته يلقي اللوم جزافاً على الجميع، يلوم النفس ويبكي الندم ويتمنى غسل عار ذنوبه. الكل شارد في خطيئاته لأنها بالنسبة لهم ملاك أحبّها الجميع فقصّوا جناحيها حين أهملوها.

أمٌّ ما عاشت أمومتها الحقيقية، وزوجة خانعة، وأخت مطرودة من رحمة الأخ والأخت. يعزّ عليها وداعهم قبل النطق بالحكم، أتخرج إلى ساحة ندمهم وتحتكم فيهم؟ تصدر أحكاماً عادلة، ثمّ تعود إلى فراشها الوثير تحكي للأجهزة قصّة عاشتها في البيت البارد، كتبت هذه العبارة على الدفتر الأزرق وتمتمت (لو يوم فقط تشعر بدفئه كما تشعر بدفء هذا اللحاف الأبيض الكبير). تريد مالكاً الآن بعد توبته هذه، تريد أن تستيقظ لتقبّل كلّ ذرّة فيه وتخبره حينها بأنها ستسامحه بشرط ألا يعود إلى حياته الماجنة. ستسامح طفلها ومن منا لا يخطئ، ستسامح أختها وأخاها فهما دمها.

ولكن إن استيقظت فربما سيكون لها رأي آخر... ربما ستلجأ إلى محاكمة عادلة، هي الضحيّة وهي القاضي ووحدها ستكون الجلّاد، ستصدر حكمها الأول على مالك وسيكون حكماً قاسياً إذ ستنفيه من حياتها فهو من طعن بشرفها، في لحظاتها الهانئة وربما تكون الأخيرة. ستقتل شوقه ومن ثم ستدفنه في مدافن الندم وتعود إلى الحياة الأولى التي لا يشاركها فيها كائن حي لا يلوذ بالصمت، ولكن من المحتمل أن يدّعي هذا

الأخير الثرثرة ليسحبها إلى قعر الألم وهي الهاربة من كلّ كائن بشري، يحسب نفسه إلهاً منزلاً وعليها إطاعته.

ربّما ستسامح البقية، فلا هي قادرة على خصام طويل مع رابطة الدم هذه وقلبها لن يستطيع مسامحة مالك.

تعب مالك من سرد ما يؤلمه، وتعبت كذلك أرضيّة الغرفة من كثرة ما مرّ فوقها بحذائه الجلدي الجديد، نظر إلى ساعة يده، رآها تقترب من الثانية والنصف، الوقت يزحف به ببطء قاتل وكأنّ دهراً بأكمله مرّ وهو هنا، نظر إلى انعكاس وجهه على النافذة فرأى الشيب قد غزا نصف شعره، في الوهلة الأولى شعر بأن الشيب ازداد في هذه المحنة، في هذه الساعات القليلة تقدّم به العمر تقدّماً ملحوظاً، ربّما لأنه غير معتاد على حمل الهموم، فوحدها من كانت تحمل همّه وهمّها وهم البيت بأجمعه حتى تراكمت الهموم عليها، وبات حملها ثقيلاً لا تعرف أين تضعه. حتى انحناء ظهره يخبره بأن عمره قد تجاوز الثمانين.

جلس على جانب السرير يتأمل قطرات فبراير المنبعثة من ضجيج الرعد الهادر، سكت قليلاً بينما يرتّب ما يقول، ويخرس أوجاعه المتألمة وضجيج روحه، ثمّ قال:

- لم يكن لي مكان واحد أنتمي إليه، حيث يكون قلبي أكون، إضافة إلى مهنتي في بيع العطور كان لدي مهنة مستحدثة وهي الركض خلف النساء، أحبّ وجودي بجانبهن فأنا لا أجيد الفرح بغيرهن، تتالت النساء في حياتي، جميعهن كنّ عابرات سبيل ونسيتهنّ، ولكن هناك من عبرت فاستوطنت فتركت بصمة العمر ومضت، هناك أنثى تمرّ من خلالنا ولا ترحل قبل أن تترك أثر الياسمين خلفها. إنها "رشا"

أتذكرينها؟! ابنة عمي التي تماثلني في العمرِ، لم تتزوج فخافت على ذاتها من شبح الوحدة من لقب عانس، فبدأت ترتاد دكاني زبونةً أعرفها، تضحك معي وتبادلني الطراف، ولم أفهمها في البداية فأنا لم أفكّر بها يوماً كامرأة، بل كابنة عم لي وشيء مسلّم به، فأنا أحب الابتعاد عن الأقارب في إقامة العلاقات والكل يدرك السبب جيداً.

بدأت تطلب مني زيارتها والاطمئنان على والدتها المشلولة. أصارحكِ القول بأنني أحببتها حين كنت معها، إذ كانت لطيفة وظريفة، ولكن اليوم لم أعد أسأل عنها وغداً سأنساها، ولكن أينسى الرجل امرأة دخلت حياته وعاثت فيها فساداً؟ أينسى الرجل امرأة عاشرها ولو ساعة واحدة؟ امرأة

اقتحمت حياتي لا أقوى على نسيانها بسهولة، ولا يتم محوها من ذاكرتي بسرعة.

بُليت بقربها، وما الحب إلّا ابتلاء وانتهى الأمر بي إلى زيارتها كل مساء، فهي جيّدة في الطهو إذ كانت تطهو لي أطايب الطعام وتداعب قلبي بنجوى الحبّ. حين تهمس بالحب أطير كعصفورٍ نحو سهم الحبّ بإرادتي، فليخترقني وليخترق الحبّ فؤادي.

للحبّ وجوه مختلفة ولحبّها مذاقٌ مختلف، قالت لي ذات ليلة سمر وهي تعانق لهفة الحبّ فيّ:

"سنفترق ذات يومٍ ثم نلتقي، ثمّ يكتب لنا الفراق نهاية، ثم يمحوها اللقاء، ثم فراقٍ يدوم للأبد، فلا أرى نهاية طريقنا سوى" قاطعتها قائلاً ويدي تحتضن كفها:

"دعينا من الترهات ولنستمتع باللحظات الحلوة معاً"

كنتُ كلّما تمعّنتُ في النظر إلى فحم عينيها أشعر بلذة الانتصارِ عليكِ، فعيناها تجذبانني إليها ولا تخيفانني بقدرِ عينيك الرماديتين، ومع ذلك أهرب في النهاية إليك، فأنت الملجأ الأمين حين تحاربني نساء الكون.

عيناها رواية لم أجِد قراءتها جيداً، لو رأى نيوتن ليل عينيها لأكل تفاحته ولجعل قانون جاذبيته عينيها، حين تتحدّث أصطدم بنبرة صوتها الناعمة فأفقد الوعي داخلياً رغم ثبات جسدي وهدوئي الظاهر، كلماتها كانت مقتضبة وكأنها تمارس الصمت هي الأخرى، لا شيء تخبرني إياه سوى "تذكّرني دائماً وحذار أن تنساني"، كانت تدرك بأنها لحظة مؤقّتة في حياتي، فكنتُ أحاول مدّها بالأمان وأقول لها "أنتِ الوحيدة القادرة على إخراجي من مأساتي، حين تعتقدين بأن لا أحد على هذه الأرضِ يكترثُ بكِ، تعالي إليّ" ولكنّها وضعت سبابتها على فمي لتسكتني قائلة:

- أنا يا مالك كم صفحة في فصول روايتك؟
- أنت الرواية بأكملها.
- ورجاء؟
- رجاء رواية أخرى لا دخلَ لكِ بها.
- هل هي الرواية الأساسية في حياتك.
- أخبرتك أن لا شأن لكِ بها.

ضحكت ضحكة مجلجلة، حتى ظننتُ بأن والدتها ستقف على قدميها وتأتيها راكضة معنّفة إياها على ضحكة دون سبب، ثمّ قالت:

- لكلّ امرأة في قلبك رواية، كم أنت بارع أيها الكاتب العظيم!
- لستُ كاتباً يا رشا، أنا بائع عطور.
- وعطورك لمن هي؟
- باهظة الثمن للغالية، والرخيص للرخيصة.
- وأنا من أكون؟
- أنت أغلى العطور.

نظرت إليّ تسخر من منطقي وحديثي الكاذب، ثم قالت بهدوء:

- قلبي كان مرتبطاً بقلبك كرباط الأرض بالشهيد، كل ما كنتُ أحلم وأرغب به أن تكون لي، لي فقط يا مالك... لم أكن أريد من الدنيا شيئاً آخر، لكن في نهاية المطاف تقدّم بي العمر دون أن أشعر به، وبتّ أحمل أطفالك وألاعبهم ونسيت أنني مازلتُ عذراء بلا زواج.

وسقطت دمعة من عينيها مسحتها بأصبعي فوراً وابتسمتُ لها وعانقتها حتى كدتُ أن أدخلها إلى صدري كي تشعر بأمان الحبّ في القلب. ثمّ أكملت وهي في حضني تذوب:

- كنتَ تعيش بي وأشعر بوجودك معي رغم المسافات، فكنتُ أراك في تفاصيل بيت جدي الصغيرة، أجدك في كلّ الروايات والأغاني والأمكنة، كنتَ بعيداً عن عيني لكنّك الأقرب إلى قلبي.

وعانقتني هي بدورها أكثر مما عانقتها، وكأنها ترغب بالدخول إلى قعر قلبي، ثم همست:

- كنت الأقرب إلى روحي من كلّ شيء.

بين عينيها مشرق روحي ومغربها، حبّها موجود وحبّي ناقص الوجود، عانقتها أكثر كي لا أنظر إلى عينين تثيران ارتباكي، أحبّتني، لا أنكر ذلك، لكنها جاءتني في زمن خاطئ، زمنٍ كنت أهرب فيه من غرام نسرين لأقع في شراك حبّ كان يتمناني على الدوام.

غبية رشا، لمَ لم تقل هذا الكلام من قبل؟ قبل أن أقدم على الزواج منكِ، ولكن إن كنت قد تزوّجتها كيف ستتعامل معي بنفس صمتك؟ أم أنها ستستخدم أسلحة مضادة تجعلها الأقوى؟ لماذا لم تقل هذا الكلام قبل خمسة عشر عاماً من مجيئها إلى دكاني.

كثرت زيارتي لها، وزادت لمعة الحبّ في عينينا، كثرت حكايا الحب والغرام وزادت صفحات في رواية أكتبها لها، ثمّ نسفت كل هذا الغزل اليومي لتفجّر قنبلتها في وجهي حين قالت لي:

- تزوّجني، فأنا أجيد الطهو وتنظيف المنزل، معتادة على الاستيقاظ مبكّراً، وأحبّك حد السماء، رقيقة ولطيفة، وغداً سأرحّب بزيارة أطفالك.

لمَ كل النساء يسعين للزواج؟ الحبّ أجمل بكثيرٍ من رباطٍ يربط على قلوبنا، وقيود تقيّد أرواحنا بسلاسل من نكد.

وقفتُ غاضباً:

- ولكنني متزوّج يا رشا، ولا أرغب بزواجٍ ثانٍ، ليس لي القدرة على قيد جديد يقيّد روحي.

- لكنّك تحبّني.

اقتربتُ منها، وأمسكت يديها، ثم لثمت كفيها الاثنين وقلت بحنانٍ كي تتراجع عن فكرتها المجنونة.

- الحبّ شيء والزواج شيء آخر، الحب أن نحيا العمر بأكمله عاشقين يذوبان ببعضهما كعشق السكر للشاي، أما إذا أحلناه إلى زواج فإن الحبّ سيموت، صدقيني وسنكون جحيماً لبعضنا، يمكنكِ أن تحبّيني، أن تعيشي بداخلي إلى الحد الذي أكره فيه العيش دونك، سأكون الشخص الوحيد الذي لم يعبر بجانبك بل عبر خلالك واختار الاستيطان داخل قلبك. ولكن انسي بالله أمر الزواج ولا تفتحيه ثانية.

ابتعدت عني وهي تنظر إلى كفيها تمسح قبلتي الصغيرة ثم قالت بهدوء ما قبل العاصفة:

- حسناً كما تريد، لن أفتح الموضوع ثانية.

اقتربتُ منها وهممت بعناقها قائلاً لها:

- تعالي إلى الحب إذن.

صرخت في وجهي كعاصفة ثارت للتو:

- ارحل من هنا، لن أقع في حبّك مرّة أخرى، سأشعر بالملل دونك لأنك بتّ عادة اعتدتُ عليها، سأشتاق إليكَ كثيراً فأتأمل صورك في هاتفي، وبعدها سأقوم بتتبع أثرك إلى دكانك، وأتشمم أخبارك كفأرة صغيرة، ولكن لم أعد أريدك.

ابتعدت أكثر حتى اقتربت من الباب ثم قالت:

- أريد شخصاً يحافظ عليّ ويحبّني كأنني الوحيدة في هذا العالم، لا يعترف معي بالنهايات ويحبني كل يوم وكأننا في البدايات.

وفتحت الباب وأكملت بصوت خفيض كي لا يصل إلى أذن الجيران:

- ركضتُ وراء أوهامي فصدقتها، وداعاً يا من كنتَ حلماً جميلاً واستيقظت منه.

نظرتُ إليها طويلاً، ثم اتجهت نحو الباب، وخرجتُ صامتاً وكأن ما كان بالداخل ليس عشقاً يحيي العظام وهي رميم، أغلقت الباب بقوّة ارتجّ قلبي لها، وسمعت نحيبها خلف الباب المغلق.

حمقاء هي رشا، أنا لم أعدها بشيء ولم أبرم معها عقداً ولا اتفاقاً، هي دعتني إلى الحب وأنا ذهبتُ إليه بكامل حلتي وأناقتي، هي فتحت لي الأبواب وأنا دخلتها فلمَ تبكي الآن؟ ولكن في اللحظة الأخيرة حين ارتطمت عيناي بليل عينيها الأسود، سقط قلبي مضرجاً بحبّ أدركته في اللحظة الأخيرة.

لكن هناك عهداً قطعته علي، ألا أتزوّج على رجاء امرأة أخرى أبداً، وأنا لا أحنثُ بوعدٍ قطعته.

كلّ النساء غبيّات يتركن العشق اللذيذ لأجل زواج تافه لا يمتعهنّ، وبعد ذلك يندبن سوء الحظ، ويبدأن بالبحث عن عشق يحيي قلوبهنّ.

كرهتهن جميعهن، كان يجب علي أن أسأل الواحدة منهنّ قبل البدء بعلاقتي معها، أنا رجل لا أصلح للزواج، فإن أردتِ غراماً فسأمنحك القلب والروح وإن أردتِ زواجاً فاذهبي بأمان الله.

عدتُ إليك... فجميعهن القاعدة ووحدك الاستثناء، الجميع يغبن ووحدك باقية لا تغيب، لم أحبّك يوماً ولكنني كنت أحترمك بشدّة، حين عدتُ رأيت ابتسامتك الصغيرة تفتح في قلبي مروجاً خضراء.

جلست تحدّثينني عن كتابٍ قرأته، أول مرّة أراكِ تتحدثين بطريقة مذهلة، كلامك شكّل مرجاً أخضر امتد لغاية قلبي، وأول مرّة ألمح جمال روحك وهذا ما عقّد الأمر كثيراً. أنتِ الوحيدة لم تطالبنني بزواج وأنتِ الوحيدة التي تركتُ الجميع وتزوجتها.

ابتسمتُ لكِ ثم هربت إلى غرفتي كي لا أقع بغرامك. في غرفتي تقوقعت على ذاتي وبدأت استذكر نسرين، فقد غابت عني في الآونة الأخيرة حين كنت مع رشا لاهياً، منذ أن عرفتُ رشا لم أنتظر أحداً ونسيت الجميع، والآن وبعد أن تركتها عاد طيف نسرين يعاتبني، وعدتُ أبحث عنها في كل الوجوه، وحدها من كنتُ أتحدث عنها بعاطفتي بينما البقية أحادثهن بعقلي، بنضجي، بحذري، أعشق ملامح القمح في عينيها العسليتين. آه كم اشتقت إليها.

دخلتِ إليّ حينها ونظرة اللوم تطل من سماء عينيك الرمادية، ثمّ قلتِ بصوت خفيض "مازلتُ أختار حبك رغم خيانة الدروب إياي، رغم رغبتي في الصمت والانعزال، رغم وجودي في هذا البيت البارد ولا شيء يدهشني فيه، رغم كل الأشياء التي فقدت قيمتها في عيني، ونظرة البرود في عينيك، فإنني مازلتُ اختارك دون تردد، فرفقاً بي"

كنت تصوبين السهم إلى قلبي، ولكنه لم يخترقه، فلم يسعفك الحظ في إيلامي، لأنك خرجت من الغرفة صامتة، وكأن قلبك الذبيح يبكيك ولا يبكيني.

وهكذا عدتُ إليك حينها دون اعتذار، محمّلاً بوزرٍ جديد، مليئاً بالذنوب والخطايا.

وكأنها سمعت اعترافه الجديد، ولكن ما سمعت كلمات حسرة أو ندامة، أطلّ من الكلماتِ شوق وحنين إلى نسرين، ولعنة على رشا، ولا اعتذار لرجاء.

اقتربت من الباب الزجاجي بثوبها الأخضر كخضرة أشجارها وقالت له بتحدٍ:

- ما زال القفل بلا مفتاح.

اقترب منها وقال:

- شمس الندم تحرق رأسي وصحراء الحسرة أدمت قدميَّ، اكسري الباب ولنقترب من جديد.

- إن كان يجب علينا كسر الباب، فعليك أن تقوم بالمهمة أنت لا أنا.

- ساعديني إذن، لننسى كل شيء وكأن لا شيء حدث، ونبدأ بشغفٍ نزرعه في طيّات روحينا.

- تتكلم بذلك لأنك القاتل لا الضحية. حدث كل شيء في غمضة عين منك، وفي جرح قلبي مني أنا، كنتُ دائماً أضعك في مقدمة التفاصيل الجميلة، ولكن أنت لم تضعني في مكان.

- سأضعك بداخل قلبي، لن يخلو العقل منك وسيميل تفكيري إليكِ وحدك، فمدّي لي يد المساعدة ولنخيط جراحنا معاً.

- كيف أمدّ يدي لمن خان وغدر وسكب على جرحي كحولاً وأحرق قلبي بزيت الخطيئة؟

- أدركتُ بعد فوات الأوان وقع حبّك في قلبي، هكذا بلا أسباب منطقية وجدتُ نفسي غارقاً في هواكِ ولم أعرف كيف أطفو.

- أقبل الحادثة؟ أم بعدها؟ لو لم أكن هنا الآن هل كنت ستعترف عن آثامك وأنت في محرابي تبكي وزر خطاياك؟

- معك الحق في ذلك، ربما فات أوان الاعتراف ولكن لم يفت أوان المسامحة بعد، أليس العفو عند المقدرة؟

- ولكن لا قدرة لي بالعفو، فربّما أنجو وربّما لا.

- إن نجوتِ... فسأبدأ معك حياة جديدة، وإن لم.......

- لمَ سكت ؟؟ أكملها... وإن لم أنج... أليس هذا ما كنت ستقوله؟
- حينها سأقف على قبرك كلّ صباح ومساء، وأطلب منك العفو والمغفرة.
- وما حاجتي إليها وقد متْ؟ هل ستشفي القلب وقد مات بعد أن شاخ وذبح في معبد الخيانة والإهمال؟
- ألا تكفيكِ دموع الندم؟
- لا أريد دموعاً باكية، أريد قلباً نادماً.

ابتعدت عنه وهو يبكي ويشهق ويثرثر بأن القلب والله لنادم.

ما عادت ترضى باعتذارهم، فجرحها عميق لا يداويه الأسف، وإن سهروا الليل بطوله على أرضية المشفى الباردة فلن تقبل ندمهم، لأن شعورها لم يعد كما كان، ولأن الإساءة ثقيلة على نفسها كما الاعتذار ثقيل على أنفسهم.

رفعت صفاء يديها تدعو خالقها بالشفاء لأختها، ومن ثمّ اتجهت إلى المقعد وجلست عليه، بدأت تتأمّل ماجداً وهو واقف على ساق واحدة، رافع الأخرى على الجدار ويداه خلف ظهره، شارد في البلوى هذه ويفكّر بطريق للنجاة من هنا.

منذ متى لم تره؟ لقد كبر كثيراً وها قد خطّ شاربه وبات واضحاً، بات يحلق لحيته كثيراً كي لا تطول كلحى أصدقائه، صوته صار كصوت والده، حتى وجهه أصبح شبيهاً بمالك وكأن رجاء لا دخل لها في تكوينه. هو الآن قد تجاوز العشرين بشهرٍ واحد وبدأ يحلم بمستقبله كسائر شباب الوطن.

قالت بصوتٍ يرتجف:

- ماجد... أقبل إليّ، تعال واجلس بجواري كي أشتمّ رائحة رجاء فيك.

أفاق من شروده، نظر إليها برهة، ثم قال لها دون أن يتقدم إليها:

- لم تمت بعد، بإمكانك الدخول إليها، ربما لا تسعفك الساعات القادمة لرؤيتها.

- لدي أمل كبير بأنها ستنهض.

- وإن لم تنهض.

- لا تذبح خالتك يا ماجد.

- الخالة بمقام الأم، وأنتِ لم تكوني يوماً كذلك.

- الحياة تلهينا بمشاغلنا.

- الحياة قد تتوقف بلحظة والمشاغل تستمر.

- تعال يا ماجد، تعال لأعانقك فنحن هنا في مصاب واحد. أعتذر لك عن كل ما بدر مني، عن كل بعدٍ وعن كل هجرٍ.

اقترب منها وجلس بجانبها، وضعت يدها على كتفه وقالت بحنان:

- أحمل لك في قلبي وبين يدي سلّة من اعتذار تفوق سلال الاعتذارات جميعها، وحناناً يفوق كلمات اللوم والعتاب.

نظر إليها ودمع العين يرسم ألماً على وجهه:

- قدمي اعتذارك لها فلقد أخطأتِ في حقها حين كسرت قلبها، ربما تسامحك وتعود أيام الود بينكما كما كانت.

تنهد ماجد بألم ثم أكمل:

- الاعتذار الحقيقي لا يكمن في كلمة أسف صغيرة، بل في معنى جملة "ليتني لم أرتكب هذا الخطأ في حقك من الأساس"

وانهار على صدر صفاء يبكي وهو يقول:

- ليتني لم أكن ولداً طائشاً، ليتها علمتني كيف أكون باراً بها، فانتزاع السهم من الجسد أشدّ وجعاً من اختراقه.

احتضنته صفاء كأنه ابنها وهي تهمس:

- ليتنا نبدع في الاعتذار كما تفنّنّا في جرحها.

أيوقف نزيفَ القلب كلمة أعتذر؟ أيُنسى المآقي التي ذبلت من فرط العبرات؟ أتُنسى إرهاق العقل من كثرة التفكير؟ اعتذارهم لم يعد يجدي نفعاً. فحين جرحوها تدفقت الدموع من عينيها منفردة، وكانت عيونهم ترتدي الفرح ونشوة الانتصار، هي من عليها أن تعتذر الآن لعقلها الواعي عن سخافات قلبها.

اقترب حسان من ماجد، وجلس أمامه على ركبتيه، وقال:

- سوف تغفر لك، فهي الأم والرحمة والحنان.

بحزنٍ نظر إليه وقال:

- لكنها لن تقبل بمثلي مرّة أخرى، حطّمت قلبها بيدي فلن تدعه يتحطم ثانية.

وقف حسان وأشار إلى غرفتها قائلاً:

- مالك هو من حطّم قلبها وزرع فيه أشواكاً سوداء، فأحال قلبها إلى رمادٍ من بركان يحترق.

نهض ماجد بغضبٍ وصاح:

- لا تأتِ بذكرِ أبي على لسانك البتّة، فهي أحبّته بكلّ ما فيها.

صرخ حسان:

- وهو غدر بها بكلّ ما فيه.

وقفت صفاء حائلاً بينهما وقالت:

- جميعنا مذنبون، قصّرنا في حقّها وقصّرنا في أحاسيسنا، ربما كان الأمر أثقل من أن يحلّ باعتذار، نحن نكيل الاتهامات إلى بعضنا ولا ندري إن كانت سترحل بلطفٍ أو ستنزع الروح فينا، حينها ستحرق روحنا وبعدها سنعيش في جحيم أبدي. كيل الاتهامات لن يشفي جراحها، ولكن إن دعونا لها فربّما تغفر وتسامح.

جلس ماجد على المقعد وقال:

- عاشت طوال عمرها تعتذر لوالدي، كان همها ألا تفقده، عاشت حياة متعبة وهي تظهر عكس ما فيها دون أن تشعرنا بذلك.

قال حسان:

- وماذا حدث في اللحظة الأخيرة؟

- رمت الكأس فهشّمت الزجاج، صرخت كقطة مجروحة، كنعجة تساق إلى الذبح، وأول مرة أراها تنتفض على شيء لم ندركه سابقاً، وربما والدي نفسه لم يشعر به.

قالت صفاء بأسى:

- ربّما لأن الشرخ قد كبر، فالوجع بات لا يحتمل.

وأكمل حسان:

- وهناك من صبّ الكحول عليه فزاد ألمها أضعافاً.

نظر ماجد ببراءة إلى خاله وقال:

- أتقصد كنّا ثلاثتنا بؤرة ألم لها، والسبب في ازدياد الشرخ وازدياد حجم الألم في قلبها.

سكت حسان، ونكس ماجد رأسه يبكي اللحظة ما قبل الأخيرة، كيف لم ينتبه إلى دموع قلبها، إلى نبرة الألم في صوتها، وإلى نظرة الخوف في عينيها.

(حتّى وإن تأسّفت أنت، ولو قبلت أنا أسفك، فلن يعود شعوري بك كما كان).

سيتوقّف الجرح عن النزيف يوماً، ولكن الندبة سترافقني طوال عمري، تذكّرني بغمد سيفٍ مازال عالقاً في وتين القلب).

ضمّت رزان الدفتر وهي تعرف بأن كلمات الاعتذار كلها لن تأتيها، فهي تريد الاعتذار وجهاً لوجه كأبيها وليس مثل ثلاثتهم، يخشون لقاءها ويبكون غيابها، كم تتمنى في هذه اللحظة عناقها وهي التي كانت تهرب من أحضانها دوماً.

حين تفيق ستعتذر لها، حينما شاركتها الطريق وعادت من دونها علمتها كيف تكتب أحلامها، فمحتها لتكتب أشياء بعيدة عن رجاء. شاركتها بالغرق فانفردت وحدها بالنجاة.

ستعتذر عن حبّها الكبير لها وحبّ رزان كان أقلّ بكثير، كانت تضمن بقاءها بجانبها مدى العمر لذلك لم تقترب يوماً، ولكن الحياة تغدر بنا أحياناً فتبكينا لتفهمنا بأن الحب والاهتمام يأتيان مرة واحدة في العمر، حين

نخسرهما تغرقنا عبرات الكون بأكملها، وبحسرة ستفقدنا إياها وندم يأكل أطرافنا.

قالت رزان وهي مازالت تعانق كلمات أمها:

- أعتذر لحبي لكِ وإن كنت لا أستحق رعايتك، أعتذر لكونك انتظرتني طويلاً كي آتيك لتعانقيني وطال انتظارك ويبست الأيادي ولم آتِ، أعتذر لكِ حين هربت إليّ فهربتُ منكِ، رأيتِ فيَّ الابنة والصديقة ورأيتكِ أبعد الأشخاص.

فتحت الدفتر لتكمل الندب على صفحات من الألم ساخنة.

(كسرة الخاطر لا يجبرها اعتذار)

أهي رسالة الأم للابنة؟ وكأنها تقرأ أفكارها، أو كأنّ الدفتر كُتب لها وحدها وليس لوالدها، كانت تعرف بأن مالكاً لن يقرأ سطراً واحداً فيه، ووحدها رزان من ستقرأه إلى أن تحفظه.

أكملت القراءة بصوت الألم.

(أعتذر لذلك الحبّ الذي أطلقته في الهواء قبل أن أعلّمه الطيران، فطار وتركني ريشة في فضاء الحبّ تائهة).

(كنتُ اعتذر لك ولا أدري لمَ، كان همي ألا أفتقدك، وفي النهاية نضجتُ فشرعتُ أدين لنفسي بسلسلة من الاعتذارات).

كان واجباً عليها الأسف لنفسها فقد تركتها في متناول أيدي الأطفال، وتركت المجال مفتوحاً لهم ليكرروا الأخطاء ذاتها بطفولية حمقاء، دون أن يتعلّموا من الخطأ الأول، فلقد وجدوا قلبها ملعباً يلعبون به ويمرحون، ونسوا بأن هذا القلب نفسه سيكون محراباً ذات يوم، يأتونه ليصلّوا ويطلبوا العفو والمغفرة.

لم يكن لديها الكثير من الفرص، لذلك عذّبت نفسها وأهانتها في البقاء هنا في جحيم هذا البيت البارد.

(في كلّ مرة يقول:

- آسف فلتسامحيني، هي نزوة انقضت.

أنظر إليه وأقول:

- سامحتك، ولكن الجرح لن يلتئم، ولن تشفى الندبة.
- وإن أرسلتُ أشواقي إليكِ مع الاعتذار؟
- سأفتح لك الباب لعلّ الغرفة تدفئها بأشواقك.
- أدرك بأنني مقصّر لكن القلب كان يجبرني، ستبقين في القلب أميرته ما دمت رضيتِ بسلّة الاعتذارات.

كنتُ أفرح بذلك كثيراً، فالغرفة سيدفئها الحبّ من جديد ولكن الغرفة تبقى كما هي باردة، هو في شروده وأنا أمارس أنوثتي، يرحل عني بقلب رجل ثلجي بارد ويهرب إلى النافذة، يكتب اسماً لا أعرفه، يتأمله وبعدها يشعر بحرارة الحبّ ويتركني في زمهرير الألم، أستدفئ بالدمعات التي من برد غرفته تجمّدت في المحاجر ولم تنهمر، اعتذاره سيء جداً لا يصلح ما بيننا، أعذاره الواهية أسوأ من عدمها).

(الاعتذار روح قويّة مفعمة بالندم، ولكن اعتذاره لم يصل القلب أبداً).

رمت رزان برأسها على الوسادة وقالت:

- أنا من عليها الاعتذار، فقد أخطأتُ في حقّك إذ لم أقف بجانبك، فهل ستقبلين اعتذاري؟ أم ستحطّمين القلب فتنتقمين؟ أحمل في جعبتي الكثير من الاعتذارات، تخصّكِ وحدك.

مازالت مستلقية على ظهرها والدفتر بين يديها يخبرها عن معاناة تقرؤها أول مرة:

(لن أؤمن بالاعتذار، فمن يحبني لن يهملني أبداً، وكل الليالي تعرف بأن الكسر لا يجبره ألف حسرة وألف ندم).

رمت الدفتر فسقط على وجهها، مخبئاً دموعها المنهمرة على وجنتيها.

وبكى مع توقّف المطر كأنها رسالة السماء إليه، يأمل أن يكون نهار هذه الليلة لطيفاً ورائعاً، يتمنى أن تستيقظ رجاء وهي ممتلئة بالرضا والحبّ غير آبهة لشيء سوى لراحتها، ليس لأنها سامحتهم ولكن لأنها ستعرف بأن الفرق بين الحياة والموت لحظة واحدة وربّما ثانية.

نقيّة هي كينبوعِ ماءٍ صافٍ وحولها يتسلّق الياسمين، كل ما فيها بمثابة عطرٍ فوّاح يرتّل أناشيد صباها.

هي الناجية الوحيدة من الحادث، فرّت من قسوته وهيمنته، فرّت بقلبها هاربة من كلّ شيء، لتقف أمام الموت عاجزة عن التقدم، خائفة من الرجوع.

نظر إليها بدمع الحزن وقال:

- لديّ الكثير لأخبرك به هذه الليلة، لدي اتهامات لكِ ويكفيني منها الصدق، أفيقي وأخبريني سرّ الحادث الأليم وسرّ صراخك العقيم، لمَ ثرتِ في وجهي وقفزتِ كلبوة شرسة، وأنا قد كنت أحسبك قطة أليفة لا تعضّ.

أعرف بأنكِ لا تتقنين فن إيذاء الآخرين، لستِ مثالية ولكنك لا تعرفين للشرّ طريقاً. لم تجرحي أحداً سوى نفسك بصمتك ولا مبالاتك، وهذا

الجزء الغبي بداخلك هو ما حطّم الأمل بيننا، فأنتِ لا تنقضين العهد ولا تخونين الوعد، لا تكسرين الفرح في عين إنسان، ومع ذلك أذقتك مرارة الخذلان والوحدة، ولم أجد الرحيل عنكِ ولا التخلّي، لأنك الباقية وهن الراحلات.

وصرخ في قهرٍ:

- إذن لمَ تفننتِ في الانتقام في لحظتك الأخيرة، فقط لكي تخبريني بأنك بارعة في اللعب مثلي، كم أنتِ عظيمة يا رجاء! ممثلة مبدعة وإبداعك فاق كلّ أبداع أبدعته معك زمناً.

انهضي واهزميني وانتصري عليّ، وأخبريني بأنّ هذا ما هو إلّا محض افتراءات لا أساس لها من الصحة، أضغاث أحلام، كذب وتأويل، كلّ شيء، ولكن لا تصمتي، يكفي ما لاقيته من صمتك الحزين.

اقترب منها وجلس على الكرسي وقال:

- لقد تجاوزنا العمر معاً، فلن تهزمنا حكاية جديدة وخطوة أليمة، كلّ الأمور التي كنتِ قلقة أن تعتادي عليها اعتدتِ عليها، ولكنني أخشى يا

رجاء الاعتياد على الوضع الجديد، فأنا رجل شرقي يتملّكني الخوف من فقدان ما أملكه في لحظة مفاجئة، في لحظة لم تكن بالحسبان كماء لظمآن في قارورته الأخيرة ينسكب على الأرض، سيبقى العمر بأكمله يعيش لحظة الظمأ هذه، ومن المحتمل أن يخلّدها في دفتر ذكرياته.

أنا مالك يا رجاء، ولن يملكك رجل في الدنيا سواي مع أنني لم أكن يوماً ملكاً لكِ.

منذ أن غاب نصف قلبي أكملتُ فراغه بالعابرين، انهضي الآن وليس غداً ولنضع نقطة لكل ما يؤذينا، لأن الفواصل متعبة وتستنزف الحبر فينا.

الآن أيقنتُ مدى الجرح الذي سببته لكِ، والآن أدركتُ مدى صعوبة أن تذوبي بصمت دون ثبات، دون أن توضع يد على كتفك لتخبرك ببقائها معك.

في كلّ مرة يؤلمها تبتسم أو تصمت، ثم ترمي جملة صغيرة كالسهم فتشقّ صدره وترعبه وتوجعه، في كل بلاء يأتيه يركض إليها زاحفاً ويتقوقع كالقوقعة، يئنّ ويشتكي حتى تواسيه بحبّها، وبنبرة الحنان فيها تهبهُ

حلّاً لكل المعضلات، يرحل عنها شاكراً فخوراً بها. والآن وقد هبّت رياح البلاء إلى أين يهرع؟ وبمن يحتمي؟ وإلى أي كتف يستند؟

كان يلزمه ظلام كهذا الظلام ليعرف مع من يشعّ ومتى يلمع نجمه، فكلّما تذكّر حبها إياه اطمأن قلبه، وكلّما تذكر اللحظة الأخيرة هرع قلبه منه، وكلما تذكر الرجل الغريب بكى القلب وكأن السكين لم تغرس فيه بل طعنت رجولته.

هذه الليلة غريبة جداً وكأنها تمضغ عشاء الجائعين، قاتمة السواد مليئة بالوجوم، تصمت لحظات ثم تهدر وتطلق زخاتها الملتهبة بهمجية.

وقف مالك ينظر بخوفٍ إلى النافذة الزجاجية التي تقف على يمين سرير زوجته.

عادت الأمطار تتساقط بجنون وسمعها تلطم زجاج النافذة بوحشيّة، اشتعل الحزن في قلبه لا من همجية الأمطار، بل لأن هذا المشهد سيبقى عالقاً في الذاكرة لا تمحوه الأيام، عند كل سقوط للمطر سيتذكر هذه الليلة.

تذكّر إيلاف صديقة رجاء ذات الصوت الصاخب والعيون المجنونة، نظر إلى ساعته فوجدها قد قاربت الثالثة والنصف، أتراها ستجيبه إن اتصل بها الآن، فهي امرأة تهوى السهر، والأرق يلازمها في كل الأوقات، قرر الاتصال بها ليخبرها بعجزه هنا وبخوفه من مستقبلٍ بات قريباً ويخشاه أن يتحول إلى حاضر يؤلمه بسرعة عجيبة.

إيلاف تسكن وحدها بعد وفاة زوجها بديع منذ خمس سنوات. ولن ترفض طلبه بالقدوم إلى هنا بغض النظر عن منتصف الليلة المجنونة.

أمسك هاتفه، ولكن ما عساها تفعل له الليلة، له؟؟ أم لها؟؟؟ لا يهمه شيء من هذا، ما يهمه قدومها إلى هنا ومواساته على مصابه، يريد أن يبكي الآن على كتف إحداهن، إن كان كتف نسرين بعيداً فكتف إيلاف قريبٌ جداً، ستأتي الآن وتخبره ما عليه فعله. واثقٌ هو من مجيئها إليه.

ومن بين أصابع مرتعشة مترددة ضغط على زر الاتصال، تأخرت بالإجابة، من المفترض أن تكون نائمة الآن وفي سبات عميق، فالساعة الآن الثالثة والنصف، ولكنها قالت له مرّة بأن الأرق صديقها وأنها لا تنام قبل الفجر. وأخيراً جاءها صوتها الناعس بعد مكالمتين فاتتها، لتجيب بدهشة أوقظت حواسها، سمعته يبكي ويخبرها ما جرى لرجاء وقال لها بصوتٍ يئنّ:

- مالك بحاجتك يا إيلاف.
- مالك؟ أم رجاء؟
- الاثنان معاً.
- وهل لزام عليّ المجيء؟

- أدرك كم تأخّر الوقت، ولكن ربما لا يسعفك الوقت ثانية لتعوديها.

- سآتي في الصباح الباكر.

- هي تحتاجك الآن.

- ولكنها غائبة عن الوعي.

- لذلك هي بحاجتك.

صمتت قليلاً وهي تفكر أتذهب؟ أم لا. قطع صمتها هو.

- إيلاف، أين ذهبت؟

- آه، مازلت معك، سآتي الآن، لا من أجلك، بل من أجلها.

- المهم مجيئك، لا تتأخري أرجوك.

- سأتصل بمكتب لسيارات الأجرة وستجدني عندكما قريباً.

إيلاف صديقتها منذ سنوات عديدة، وقبل أن تتعرف كل واحدة على زوجها كانتا بيتي أسرارٍ لبعضهما، وحافظتا على هذه الصداقة، فهما الوحيدتان اللتان تشعران بوجعهما، لبّت إيلاف نداء رجاء كثيراً قبل أن

تصل أداة النداء إلى أذنها وساعدتها كثيراً على الصمود دون إخبارها أنها مثقلة بجراحها.

ووقعت في نهاية الأمر بشرك مالك، لأنها على الدوام ومنذ وفاة بديع في بيت رجاء تجلس على مائدتها وتضحك مع الجميع وتوزع الابتسامات للجميع، حتى ظنت نفسها أنها بمثابة رجاء وستكون نداً لها يوماً، ولكن حين سارت الأمور على غير هواها انسحبت بهدوء كي تصون العشرة بعد أن خانتها، ولا تكون في نظر صديقتها امرأة سيئة السمعة.

أوقعها في شباكه حين دعاها إلى العشاء في مطعم فخم كي يرسم لها دروباً للحب متعرّجة، قالت له حينها:

- درب حبك إلى أين يفضي؟
- إلى بيتي.
- إلى زوجتك؟
- لا .. لا .. إلى قلبي إذن.
- وماذا بعد؟
- لنعش الحب الآن، وننس ما يحدث فيما بعد.

أمسك بيدها وقبّلها وهو يتأمّلها، فسحبها معه إلى عالمه، وكانت شقتها مرتعاً لهما، عاشت أوقات الحب الحميمية معه، وعلى السرير ذاته الذي كانت تمارس عليه الحبّ مع بديع مارست معه كلّ أنواع المحرّمات.

غاصت في الحب وسكرت منه حتى ارتوت، ثم ظمئت وطالبت بالمزيد. وفي تلك الزيارات إلى منزل رجاء كانت تمارس دور الصديقة الصدوقة تستمع إلى أسرارها، تصمت ثم تعطيها قائمة بالنصائح الزوجية، من قال إن رجاء وحيدة؟ كانت لديها صديقة تخبرها بكل آلامها وفي الليل لا تخبر تلك الآلام لمالك، لأنها تريد أن تحيا وتعيش، لا تريد أن تصمت وتبكي كما تفعل رجاء. فبنظرها رجاء غبيّة بإمكانها عيش الحياة التي تريدها، ولكنها هي من فضّلت الابتعاد، وتنتظر من مالك أن يكفّ عن إهماله إياها.

اقتربت من مالك واقترب منها وضمّها، فقالت له:

- رجاء حزينة، حزينة جداً يا مالك.

ابتعدت عنه وابتسم هو:

- ومنذ متى لم تكن حزينة؟

- هل أنت مالك معي نفسه معها؟ إن كنت كذلك فلماذا إذن حزينة؟ وإن لم تكن، فلماذا لا تمنحها السعادة التي تمنحني إياها؟

- لأنها زوجة وليست حبيبة.

- لا أفهمك، ما الفرق.

أدار مالك وجهه عنها، وخلع جاكيته فألقاه على الكنبة، وجلس قائلاً:

- الحبّ يا إيلاف للحبيبة فقط حتى تصبح زوجة، فإن أصبحت كذلك صارت عادة للرجل موجودة في المنزل عليه احترامها كشيء مسلّم به ولا يملك من أمره شيئاً، يؤديها حقوقها وينتزع منها حقوقه، ولكنه لا يستطيع أن يكون عاشقاً لها لأنه يراها بكل حالاتها المفرحة والمحزنة، لا يستطيع أن يشتاقها لأنها موجودة معه في كل حين.

اقتربت منه وجلست بجواره قائلة:

- مازلتُ لا أفهم.

وضع ذراعه حول كتفها، وقال لها سأشرح لكِ الأمر بطريقة سهلة:

- هذه الأريكة التي نجلس عليها، سترينها في المعرض معروضة، ستعجبك زخرفنها ونقوشها، ثم ستبهرك ألوانها البرّاقة فسرعان ما تقعين في هواها، وبذلك سيكون لزاماً عليكِ القدوم كل يوم إلى المعرض لتريها وتتسكّعي حولها ويحزنك إن قرر أحد شرائها. ستشترينها يا إيلاف، وبعدها ستضعينها في صدر البيت وتجلسين عليها في الصباح والمساء حتى تصبح عادة لديكِ وتصبح من أساسيات المنزل وبعدها ستعتادين الجلوس في أيّ مكان، لن يعود حبّك إياها كما كان في البداية. ولكنها ستبقى تأخذ صدارة البيت بأكمله.

نظرت إليه بقلق أظهرته عيناها:

- وأنا يا مالك أين تراني؟

ضحك حتى بانت نواجذه:

- أراكِ في قلبي.
- لا أقصد ذلك، ما أقصده عن الحب إلى أين يفضي؟ هل سنتزوج؟
- أعود للشرح من جديد، أنتِ اشتريتِ الأريكة أليس كذلك؟
- أجل.
- ما حاجتك إلى أخرى.

نظرت إليه بذهول، ثم بدمعٍ ترقرق في العينين:

- مالك؟
- نعم عمري.
- حين تعتق الأريكة نقوم باستبدالها، أليس كذلك؟
- أجل، بالطبع ولكن أريكتي مازلتُ أحبّها رغم أنني لا أكنّ لها الحبّ الذي كان ولا أستطيع استبدالها بأخرى، أتدرين لماذا؟
- لماذا؟
- لأن العالم مليء بالأرائك الجميلة والمذهبة والرقيقة.

نفضت ذراعه من على جسدها، ثم قالت:

- أتدري بأنك وقح؟!

- بل أنا محبّ لجميع النساء، نحن يا إيلاف ملاذ بعضنا، أنتِ ضائعة بلا حب وأنا وجدتك، فلا تنكري بأن هذا الحب أسعدك يوماً.

- ولا أنكر أيضاً بأنك خنت رجاء حين سحبتني إلى هواك.

- وأنت قمتِ بالخيانة الكبرى، خيانة الصديق أقسى الخيانات يا إيلاف.

من وقتها لم يرها، وفي كلّ مرة يرسل لها أشواقه ويبثّها أحزانه عن صمت رجاء، كانت تقف في المنتصف بين الاثنين، تحاول مداواة جراحهما قائلة له:

- فشلت في إقامة الحب بيننا، لذلك سأحاول إصلاح علاقتكما أنتما الاثنين، لعل الله يغفر لي خيانتي إياها.

وعادت إيلاف تحتل الركن الأكبر في البيت الكبير.

اقتربت منه مصافحة إياه بابتسامة صغيرة، ودخلت إليها تحتمي بها من نظرات مالك المخترقة إياها، وجلست بجوارها على السرير الأبيض. لم تنظر إليه، بل كانت تنظر إلى تفاصيل الأجهزة الطبية المتصلة بجسد رجاء، ثم قالت له:

- اروِ لي ما حصل معها.

روى لها كل شيء من البداية إلى وصوله بشكوكه حول خيانتها إياه.

- قتلتها بقسوتك والآن تقتلها بشكك.

وقفت منتفضة صارخة في وجهه:

- إن كنت خائناً إياها في كل حين فرجاء لا تعرف الخيانة، لا تسوّغ خيانتك بإصدار الاتهامات لها. فرجاء نقية وصافية كقطرة ماءٍ في شلالٍ صغير.

ثم عادت إليها ومالت نحو رأسها هامسة لها بحنان أم ثكلى:

- وجعكِ ما هان عليّ ولا مرّة، وكنت على استعداد تام لجمع كل آلامك وأخبّئها في صدري فلتخنقني المهم أن تريحك، كنتِ صديقة لي على الدوام ولم تمنحني الحياة بعدك صديقة، ممتنة جداً لصداقتنا التي ملأتها أنا بالرزيلة دون أن تدركي ذلك، ومع ذلك رأيتكِ وأنتِ تمدّين يد العون لي فبددتِ أحزاني في حين كنتُ أبدد أفراحك.

وقفت تبكي زلاتها وقالت:

- كنتُ كلما رغبتُ بالاختلاء بنفسي آتي إليها كأنها نفسي.

اقترب منها وعانقها لترتاح على صدره، فأجهشت بالبكاء كأنها بحاجة إلى هذه العبرات، ثم رفعت رأسها وقالت:

- هذا العناق لا أرغب فيه بعد الآن.

- لا تظني السوء يا إيلاف، عانقتك لأنني رأيتك بحاجة إلى حضن تبكين فيه، وأنا بحاجة إلى كتفٍ أستند إليه. بإمكانك القول بأننا أصدقاء جمعتنا الليلة محنة ربّما لا تتكرر، فلنكن معاً في ضرّاء هذه الليلة الواجمة.

- هل كنت تفهم صمتها؟

- ما فهمتُ كلامها لأفهم صمتها.

- ولكنني كنتُ أفهم حزن لياليها وصمتها الكئيب، لو عرفت بأنني فعلتها معك لكانت أصبحت في الحياة وحيدة، أرادت صديقة بلا عيب فكانت كل العيوب فيّ، لم تعرف بأن الإنسان خطّاء بطبعه.

اقتربت من سرير رجاء ثم قالت:

- منذ وفاة زوجي وأنا دائمة السقوط، كنت أسقط أحزاني عليكِ، لذلك لم أرتطم بالأرضِ يوماً، لن أقول لكِ فلتغفري ولكن سأقول ما لم يقله أحد من المذنبين لا تغفري، لأنكِ إن غفرتِ فسأحمل ثقل الخطيئة وأدور بها الأرض خمسين مرّة ولن أغفر ذنبي، ولكن إن لم تغفري فسأكون قد نلتُ عقابا أستحقّه.

سارت نحو النافذة وابتعدت عن رجاء، نظرت إلى المطر المجنون واقتربت من النافذة أكثر، فتحتها ووضعت يدها تتلمس قطرات المطر وقالت:

- كنتُ قادرة على الاختباء من العالم بأسره عندما يجمعنا حديث. لا سامحك الله يا مالك على ما فعلته بي وبها، جعلتني أحمل وزراً ما ظننتُ بأنني سأحمله يوماً ما، حملتُ بسببك أطناناً لا تحصى من الألم، وها أنت تشكو لي الآن ضعفك وخطأك وندمك.

اقترب منها ووقف خلفها قائلاً:

- فات الأوان على ذلك، لم أطلب منكِ المجيء لتخبريني بأمورٍ أعلمها، طلبتُ منكِ القدوم لتقفي معي في محنتي.

- بصفتي ماذا؟

قالتها وهي تراقب كثافة الأمطار بعد أن سحبت يدها وأغلقت النافذة.

- بصفتك الأقرب إلى قلب رجاء.

شهقت بالبكاء، وخبأت وجهها بين يديها، ونزلت إلى الأرض تبكي وتندب وتقول:

- لكنني خنتها، خنتها يا مالك،ألا تفهم ما خيانة الصديق، هو سهم يغرس في القلب، نزعه لهو أشدّ وجعاً وبقاؤه يعني مرور أعوامٍ من وجع لا يحتمل، سهمي وإن غرس في قلبها فلم أستطع انتزاعه منها كي لا أقتلها، حاولت إبقاءه علّها تتأقلم معه، ولكنها حينها ستبقى العمر بأكمله تعيش بوجعٍ لا يشعر به سواها.

حاول مالك إنهاضها، ولكنها أبعدت يده عنها، وارتمت وحدها على الكرسي، تنهدت بخجلٍ أربكها ثم قالت:

- خيانة الأصدقاء قاتلة، خيبة الأصدقاء ندبة تحفر في القلب ووجعها لا ينتهي بألف حبّة دواء وألف ضمادة جروح، خيبة الأصدقاء حرقٌ يحرق القلب وخذلان نعيشه العمر بأكمله بنصف قلبٍ ونصف روح.

ربتَ على كتفه ليواسيها، أرادها أن تأتيه لتنزع عنه رداء الحزن فألبسته ثوب الهموم، أصبح هو من يواسيها ويواسي نفسه، ازداد ندمه أضعافاً وزاد في حسابه عدد الخطايا المحرّمة وهنا في هذه الغرفة لا توجد

عدادة آلية تقوم بتعداد خطاياه، في هذه الغرفة امرأة فاقدة الوعي لا تستجيب له ولا تعرف بأن هذه الأخطاء حضرت الآن لتغفر هي.

هو يقرّ بذنبه وهي قد تستمع وقد لا تستمع، وربّما فات أوان الاستماع، كانت تعتبرها روحاً خلقت من روحها، وجدت فيها الأمان الذي احتاجته فكبرت أفراحها الصغيرة معها ومعها أيضاً صغر الحزن ولم يكبر، فهي لديها مقدرة كبيرة على حمل السرور على كتفيها لتهديها سعادة كبيرة في كلّ مرّة تلتقيها، ومن المؤكّد أن هذا ما جعلها تصمت حين تُجرح لأنها كانت تبثّ شكواها لا لمرآتها ولدفترها فقط وإنما لإيلاف. ولم تعرف بأن الطعنة القاتلة كانت من إيلاف، ولو عرفت لصرخت قبل هذه اللحظة بكثير، وكانت حينها افتعلت الثورات وصرّحت بمكر أنثى بأن أرضها غير قادرة على استقبال الزوّار.

نظرت إيلاف إلى مالك وقالت بحزن:

- هل عرفتْ ما دار بيننا؟ لم أسألك حينها، وخشيتُ أن أسألها إن كانت تشكّ بعلاقةٍ بينك وبين إحداهنّ.

- ربّما حاستها السابعة أخبرتها بشكوكها دون أن ترمي الشكوك على أحد.

- وماذا قالت حينها؟ أعرف أنها تلقي جملة مقتضبة ثم تصمت صمتاً طويلاً.

- وهذا ما كان يحيّرني فيها.

- ماذا قالت؟ ها .... أخبرني.

- "بنفس القوة التي أحببتك فيها سأهجرك يوماً، كان حزنها ضئيلاً هذه المرة حتى لمحتُ شبح ابتسامة تزيّن ثغرها، ربما لأنها قصّت مشاعرها فتعلمت المواراة فما عادت قسوتي تعنيها.

- وربّما اعتادت على وخزات الألم فأحبته.

- أحبّت الألم؟

- نعم يا مالك، حين تحب شيئاً يصبح عادة لديك كأريكتك المزركشة.

وحين أحبت ألمها اعتادته فصارت تتقبله بصمت.

- لم تكن تستطيع الكلام، ولكن كانت تفضي بذلك لكِ وللدفتر. هل هي من أخبرتكِ بذلك.

- لا ولكنها قالت لي حينها "لم أشعر بالوحدة وأنا وحيدة، ولكن أشعر بها دوماً حين أتذكر بأنني أحببتُ شخصاً لا يبادلني الحب. هل قرأت ما كتبت في دفترها؟

- لا... كنت أظنّها تكتب أشياء لا قيمة لها، لم يخطر لي قط أن أقرأ ما تخطّه أناملها المرتعشة.

أشاح عنها عينيه بعد أن كانتا ترنوان إليها، ثم توقّفت عيناه على عيني رجاء المغمضتين وقال:

- كانت دوماً تمثّل القوة وهي أهشّ من القش، هل كانت تشعر بالندامة لاختيارها الزواج مني؟ أعطتني كلها وأشعرتها دائماً أنها تمنحني أقل.

نظرت إليه بأسى وعادت تنظر إلى رجاء ودمعات العيون تتراقص في المحاجر فتنسكب كقطرات المطر الصاخبة على الوجنتين، لترسل رسائل ندم ربّما لا تصل إلى وجهتها. بينما هو واقف شاردُ يفكّر بأشياء كثيرة عرفها عن صمت رجاء وحزنها في المرة الأولى.

هدأ جنون الشتاء وتوقف إلا من قطرات صغيرة تنهمر كلّ حين على أوراق الشجر أو أسطح الأبنية، توقف حسان يراقب الليل الحزين، نفث سيجارته وهو في الحديقة وحمل هاتفه يراقب المكالمة الواردة من وداد، كان ذاك اتصالها السابع وهو لا يجيب عليها، يدرك تماماً أنها غاضبة منه الآن لبقائه بجانب أخته، إلى متى سيهرب من اتصالاتها فهو سيعود إليها عاجلاً أم آجلاً، وهناك ستنفجر كقنبلة ذريّة في وجهه، فمن الأفضل له أن يجيبها الآن وليتحمل غضبها الطفيف. ردّ على اتصالها فصاحت بعصبية تأمره بالعودة إلى المنزل حالاً، فلا يجوز أن يبقى في البيت طوال الليل بأكمله لأن البيت دون رجلٍ الآن وهي لا تشعر بالأمان بغياب رجلها عن البيت، إذ تخشى الليل كثيراً، ومع أنها ليست وحدها فبناتها الثلاثة في المنزل يتقاسمن معها شعور الأمان ولكنها لا تجد أمانها إلا مع حسان. رمى سيجارته في سلة المهملات ثم عاد إليهم، وقف قبالتهم وقال بصوتٍ هادئ رصين:

- سأغادر الآن، أعلموني في حال حدث لها مضاعفات جديدة، أو حين تفيق من الغيبوبة.

صاحت صفاء تؤنّبه:

- إلى أين أنت راحل؟ أليست هي أختك والأولى أن تبقى بجانبها.

- ألا تدرين ما حدث، نحن لم يسمح لنا بالدخول وأدخل تلك إليها على الفور.

- إيلاف صديقتها وأنت تدرك ذلك جيداً وهي بمثابة أختها.

- بمثابتك أنت إذن؟ أهي بديلتك؟

- لا أقصد ذلك ولكنك تدري بأنهما صديقتان حميمتان.

- ومع ذلك كان الأجدر به أن يطلب منا نحن الدخول لا منها، تبقى غريبة عن عائلتنا. علاوة على ذلك وداد خائفة وهي تحتاجني الآن في المنزل.

- وداد مع بناتك الثلاث.

- والجميع مع رجاء.

- لكنك أخوها وهي قطعة من والدتنا، أنت سندها العظيم، قوّتها وضلعها الثابت.

- هي لا تشعر بوجودنا الآن إلى جانبها، فما فائدة البقاء؟

- يكفيها شعورها حين تستيقظ وتعلم بأنك مكثت خارج الغرفة طوال الليل البارد بانتظارها.

- يكفيها وجود شخص واحد بجانبها، هو الذي أبكاها في عمرها الذي مضى، وها هو يبكي كالطفل التائه على سريرها.

وخطى خطوات سريعة قبل أن تناديه، صاح دون أن يلتفت:

- أخبريني إن استفاقت.

وخرج مسرعاً إلى سيارته، جلس أمام مقودها، كانت الحروف تعجز عن وصف عجزه، كيف كان أمانها وسندها وكيف أضحى كبيت العنكبوت واهناً لا يحملها ولا يحمل همومها.

أدار المفتاح، وشقّت السيارة طريقها بعيداً عن ليلة قضاها في أروقة المشفى وبين روائح التخدير.

كانت الطرق مهجورة لا حياة فيها، الكل نيام غافون في دفء بيوتهم، وهناك على الأسرّة من يشتهون لحظة دفء واحدة، وهناك من يترنح كالسكارى ينتظر بزوغ الفجر ليفيق من سكرة الألم.

وصل إلى البيت فوجد وداد عاقدة حاجبيها، جالسة على الأريكة التي تتوسط غرفة المعيشة، واضعة ساقاً فوق أخرى، منتظرة قدومه لتنفجر في وجهه، وصاحت حين لمحته يدخل ويغلق الباب:

- حمداً لله على سلامتك، هل صنعت لها شيئاً، هل أفاقت وأنت عندها جالس؟

ارتمى على الأريكة وقال بيأس:

- ارحميني يا وداد، فأنا لم أكن في النوادي ألعب أو في الملاهي أقامر، كنت في المشفى، ومع من؟ مع الروح التي كنت بها أحيا، مع اليد التي أمسكت بيدي حين ضعفي. كنتُ مع نصف سعادتي ونصف ابتسامتي، لا أريد فقدها بعد أن وجدت كم عظم قدر حبها في قلبي.

صفّقت له وداد بصخب، فجعلته ينظر إلى غرفة البنات خشية أن يستيقظن، ثم سمعها تقول:

- أصبحت شاعراً في هذه المحنة، لم أعرف أن قلبك يمتلك كلّ هذا الحنان لها.

- لا تهزئي بجراحي يا وداد، لا تهزئي بجرحٍ لم تتذوقيه، نادم على ما فعلته بها واستيقظتُ الآن وأدرك أنه فات الأوان، ولكن وعداً إن خرجت من هذا المأزق لأعود بها إلى حياتنا الأولى _أيام الضحك والهناء_.

ثم نظر إلى وداد، وأكمل:

- ستغفر لي، أليس كذلك؟ قلبها كبير فلن تحمّلني وزر ما مر من أخطاء بسببي، أتمنى عودتها لتزهر من حولي فهي كل الأشياء الرقيقة اللامعة.

نهضت غاضبة وقالت:

- استحم قبل أن تنام، أزل عنك رائحة المشافي العفنة، هي ليست وحيدة كما تعلم.

- ولكني سندها.

نظرت إليه شذراً وقالت:

- ما إن تتزوج الواحدة حتى يصبح زوجها سندها.
- الزوج تستطيع مفارقته أم الأخ فلا.

ثم اقترب منها، وهمس في أذنها:

- بإمكاني أن أبدل ألف امرأة، ولكن لا أستطيع أن أقوم باستبدال أختي، فيا ليتكِ تفهمين.

لوت شفتيها امتعاضاً، وغادرها ليستحم صامتاً باكياً في حوض الاستحمام، ارتدى ثيابه في غرفته واستلقى على سريره، حين أرادت أن تثير الحديث أكثر أسكتها بإشارة من سبابته، ثم أدار وجهه عنها وهو يدعو لرجاء بالعودة إليهم ضاحكة مستبشرة لا صامتة.

النوم بعيد عنه كلّ البعد، وقد زاره أرقٌ جعله لا يفكر بسواها.

قالت له ذات صباحٍ لطيف حين اتصل ليطمئن عليها "قلبي يتعذب أكثر من سكان الأرض، فلمَ لا تعتني به؟"

كان يضجر من كلامها غير المفهوم وهو المهندس المخضرم البارع في الإنشاءات، يتلاعب بخطوط الهندسة كما يحلو له ويعجز عن فهم هندسة قلب رجاء ويتم روحها.

لو عرفوها حقاً لعرفوا أن صراخها في بداية هذه الليلة لم يأتِ من فراغ، لعلموا كم هي متعبة جداً وكم مرت بظروف كان ثمنها خطوط قهر على قلبها رُسمت، عرفوا فقط بأنها أضحت إنسانة أخرى، استنكروا منها شخصيتها الجديدة ولاموها باحتراف، ولم ينظر أحد إلى ما وراء الكواليس جيداً.

بكت حينها رزان كما لم تبك من قبل، تركت عينيها تُخرج كل آلامها القديمة والحديثة، لم تبكِ بكاءً عادياً بل أمطرت كهذه الليلة المجنونة، نظرت إلى النافذة وقد هدأت الريح واستكانت، توقفت السماء عن نزيفها. تأملت الغيم القاتم فمازال ممتلئاً بدموعٍ يخشى سكبها، الغيم مثقلٌ بعبرات يخزّنها إلى حين ينزف ندماً هو الآخر.

هدأت الليلة وكأنّها لم تجنّ من قبل، واستكانت يد الريح الصاخبة التي كانت ممتدة من النافذة المكسورة.

اتجهت إلى باب الغرفة ففتحته وخرجت مندفعة إلى النافذة المذبوحة وبيدها الدفتر الصغير، تراءت لها بقايا النافذة كأنّها كُسرت منذ قرن من الزمن، اقتربت منها ببطء وبرد فبراير يمزّق أطرافها بقسوته، لمَ لمْ تتذكر

الكأس الذي تهشّم أيضاً؟ لمَ النافذة فقط هي ما تطلّ عليها في خيالها بين الحين والآخر؟ ألأنّ الكأس صغير لم تفكر به إطلاقاً؟ أم لأن لديهم العديد من الكؤوس الصغيرة؟ ربما لأنها تخاف النافذة بجبن ملحوظ. وبحيطة وحذر اقتربت منها أكثر وتدلّت نحوها فرأت ليلة هادئة السواد مستكينة صابرة على مصابها تتجرع الويلات وحدها، ولكن هناك رعبٌ يسكنها لا تدري كنهه.

ابتعدت عنها وهرعت إلى المطبخ، جلست إلى طاولة الطعام بعد أن صبّت القليل من الماء وشربت دون أن ترتوي، فهي لا تريد الارتواء سوى من أسرار أمها الدفينة التي مازالت حبيسة الدفتر الصغير، فتحت لتقرأ ما بين السطور، وبداخل روحها تراكمات كأنها فاتحة لمعركة لا تنتهي بسهولة، بداخلها اضطرابات أشبه بالانهيارات الأرضيّة وانفجارات كونية، وحدها معدتها شعرت بذلك فأرسلت لها ألماً يمزّقها.

(بدأ كل ذلك بسببي، حين قلتُ لك في لحظة عشقٍ من طرفي أنني مولعة بك، ومنذ تلك اللحظة وأنت مستمر بتدميري، وقتها ما قلتها عبثاً، قلتها بعد أن رأيتُ وله عينيك يكاد يلتهم جسدي، وبعدها كأن الحدث

العظيم لم يحدث وكأنّ كلام الغزل لم يقل، مضيتَ أنت لاهياً عني، ومضيتُ أنا ذابلة أكاد أموت في عنفوان شبابي دون أن تلاحظ ذبولي.)

زاغ بصرها فدلكت عينيها قليلاً، وتذكرت نظرات الحزن في عيني أمها، كان الحزن في عينيها على الدوام ولم تنتبه له.

قالت بألم:

- كنتُ محمّلة بقدرٍ عالٍ من الحماقة فكسرتُ أجمل الأشياء في بيتنا، أحرقتها ولم أداوها، لم أعرف أنها واجهت كل هذا بمفردها.

تلبّسها الإرهاق ولا تريد الراحة، لديها جوع شديد لتقرأ الكثير من الآلام، تريد أن تنتهي من الدفتر بسرعة قبل الفجر لترحل إليهم.

(كان حزني يتجدد بلا توقّف، وكنتُ أجد نفسي تائهة أكثر ما بين حسرة على حياتي وبين حبّ ناقص لم يكتمل).

(على الدوام أحاول اختراع حجة جديدة للحديث معه، فأجد الحاجز الذي بناه بيننا قد وصل أعالي السماء).

(أكره هذا الفراغ الهائل الذي يطغيني، أكره الوحشة التي تطوي قلبي، بتّ أشتاق للسلام ولو كان بعيون مثقلة بالهزيمة).

(محاولاتٌ كثيرة كنت أحاول فيها التقرّب إليه، فأقول له "أحبك"، أقولها جادة مازحة متعبة مريضة مرهقة متألمة، وفي كلّ الحالات لا تصل إليه، هل خطئي أنّ صوتي أقرب إلى الهمس؟ أم إن أذنيك بعيدتان عني كل البعد الذي أخشاه؟ أدركت حينها أن مشاعري كانت تتسرّب إلى وجهة خاطئة، أنا غبية لأنني أعرف ذلك لكني كنت أفند الأوهام بحبي لك.)

(لا تستطيع نسياني مطلقاً، فلستُ شيئاً عابراً مرّ في حياتك وانتهى الأمر، لا، لن أكون فعلاً ماضياً تزول آثاره بزوال الوقت، أنا فعل حاضر أبقى بجوارك ما دمت تعيش الحاضر، ولن أزول بسهولة حتى تزول أنتَ).

(ستظلّ تعيش العمر بأكمله تستذكر امرأة عاشت معك عمراً، فوهبتك الحب وسقيتها الألم، كزهرة برية بدلاً من أن تصبّ عليها الماء فترويها دستها بحذائك فأفنيتها).

هانت على الجميع وكبرت خيبتها منهم، كأنهم جميعاً استعدوا لأخذ صورة جماعية لكن لم ينادها أحد، رغبتها المستمرة في الصمت كانت دليلاً حاسماً على حجم الوجع الذي يسكن صدرها.

صرخت رزان:

- ولكن بأيّ حقّ ترحلين عنا ولا ترحلين منا؟ كيف سنعيش من بعدك وأصابع الندم تشير إلينا في كل لحظة وثانية.

رمت برأسها المثخن بحكايات والدتها على الطاولة وخبأته بين يديها كأنها تهرب من مسألة معقدة تتمنى لها الحل بسهولة ويسر دون أن تشارك في حلها.

إلى هذه اللحظة لم تتحرك رجاء ولم تعط أيّ إشارة على أنها على قيد الحياة، وكما لم تعطي إشارة على أنها ميتة. الأجهزة الموصولة في جسدها تعمل دون تذمّر ودون كلال. مالك يراقب وهي تحلم بمالك، سرقته من الدنيا لتودعه عالم أحلامها.

قال لها:

- اقتربي يا رجاء، فقلبي منقبض وحلقي جاف.

اقتربت منه بثوبها الأخضر وشعرها الأسود الطويل الذي يصل إلى أسفل ظهرها، وبعينيها الرماديتين نظرت إليه بشفقة وقالت له:

- اتبع طريقك، سيدلّك عليه قلبك.

- ولكني يا رجاء، لا طريق لديّ لأتبعه، أنا من بعدك في وحدة أعيش، بتّ خاوياً من الحياة، زاهداً في الدنيا.

- ستعتاد الوحدة كما اعتدتها أنا، فالعمر فارغ وسيمضي، ولكنه قبل أن يمضي سيرهقك ويأكل نبض الحياة فيك.

- لذلك أطالب بعودتكِ لأنني أعاني من علاقتي مع نفسي، أخشى أن تذهب في اتجاه لا أرغب فيه.

- لا أريد... أعفيك مني فلا أريد أن أثقل عليك.

- افتحي الباب.

اقتربت منه أكثر وقالت له:

- ماذا زرعتُ لأحصد كلّ هذا الخراب؟

- زرعتِ حباً وسقيته إهمالاً.

- إهمالٌ فقط؟

- كل شيء تودّين سماعه، ولكن افتحي الباب.

اقتربت من الباب واقترب هو منه ولكن في الاتجاه الآخر، نظرت إليه ببرود وقالت:

- مازال القفل بلا مفتاح

- صفعتك الأخيرة أوجعتني يا رجاء، وأيقظتني لأجدني وقد أصبحت شخصاً آخر.

- توبتك ليست صادقة، لا تعد إلى محرابي مرّة أخرى. لن أقبل توبتك.

وعادت إلى بستانها وتركته في صحراء الشمس، فناداها:

- لم يفت الأوان بعد يا رجاء.

استدارت إليه، ثم نظرت إليه بسخرية، وقالت:

- قاومتُ معك لآخر ذرة دون أن أشكو، دون أن أخبرك بأنني أتألم، عرفتُ كيف أغفو والحزن يسكنني، كيف أنام وتنام الكثير من الكلمات في داخلي دون أن أجرؤ على النطق بها. لا تعد إلى هنا قبل أن أقبل توبتك.

وضع يده على الجدار الزجاجي، وبكى يستجدي الحب الذي كان صارخاً:

- لدي الكثير مما أود قوله، لكن روحي واهنة لدرجة أنها لا تحمل وزناً للكلمات.

جلس على الأرض بعد أن أنهك الندم ثاقله، ومع ذلك لم يستطع الهرب لأن ما بداخله يخبره أن لا مفرّ من الرحيل.

غارقٌ هو في شعور الندم ومع ذلك لم يجد أحرف الندامة التي تليق بحزنها، وفي النهاية لا هي حنّت وفتحت له باب التوبة، ولا هي عادت فسامحته.

لا شعورياً شعر بأنه ينطفأ بعد أن كان متوهجاً، ابتعدت عنه كثيراً لأنها تخشى توهجه الحارق، كانت طوال عمرها معه كفراشة تعشق لهب نيرانه، فتطير إليه ثم تعود مترامية على السرير مثقلة بحرائق تلهب جناحيها وأطفأت نضارة روحها.

جلست تحت شجرة السدر تقضم تفاحة صغيرة وهي تفكر بأولئك المجتمعين خلف بابها الذين جاؤوا تفريجاً لكربتها ولكنهم استحالوا لكربة أعظم، فباب التوبة أغلقته في وجوههم حين ثارت وكسّرت وهشّمت النافذة، وأغرقت الأرض بذرات الزجاج الصغيرة.

الألم الذي تعانيه من الخيبة أكبر من الأمل الذي كانت تخبئه في قلبها، كثرت الخيبات بمرور السنين وصنعت منها امرأة أخرى غير مبالية صامتة هادئة، ثم انفجرت في لحظة انهيار لم يتوقعها أحد، إذ كان الأسوأ من إهمالهم لها تفاهة صمتها عدم مبالاتهم.

تركوها تمشي وحدها في طريق لا ترغب فيه، ومشوا دروباً أخرى لا تلتقي بدربها، دافعت عنهم وقدّمت لنفسها العديد من الأعذار لهم، دافعت عنهم بالدموع حيناً وبالتنهدات حيناً آخر، وظنّتهم من فرط حبّها لهم أنهم تعمدوا المشي في دربها إكراماً لها، ولكنهم كانوا عابري سبيل لا أكثر، ولم يلحظوا انتظارها لهم على أرصفة دربها.

مازال ماجد جالساً على طرف الكرسي بجوار غرفتها، وصفاء جالسة بجانبه وبينهما يجلس الصمت الحزين، كسر ماجد لجّة الصمت فاختفى من بينهما حين قال:

- الآن أعدتُ ترتيب الأمور من جديد، وأضع أخطائي في المقدمة.

نظر إلى خالته، ثم شبك أصابعه بارتباك ملحوظ، وقال بخجل:

- لم أكن ابناً صالحاً، كنتُ أصرخ فيها على الدوام إذ أحاول أن أكون رجلاً حقيقياً على غرار والدي، كانت تراني بقلبها وكنتُ أراها بنظري. لا أعرف عنها شيئاً سوى إنهاء مهامها على أكمل وجه قبل عودتنا من مشاغلنا. لا أتذكر يوماً جلستُ وإياها جلسة سمر تشكو وأسمعها، بل كنتُ زاهداً عنها راغباً في غيرها، باحثاً عن حبّ يطيّب أيامي ويسعد أحلامي، ولم أكن أعلم بأنها بحاجة إلى كتف رجلٍ تستند إليه. كنتُ هشّاً من ورقٍ ما إن حاولت الاستناد إليّ حتى وقعتُ، فأوقعتها وتركتها تلعن العمر الذي جمعها بي، وتصفّق للحسرة التي اعتلتها وأنا بجانبها أهزأ بجراحها وأعنّف هذيانها.

تعرّجت طرقنا والتوت، وكأنّ طريقي يخجله أن تصل إليه، فلا هي وصلت إليّ ولا أنا إليها عدتْ. حتى وجدتُ الأنس والراحة في غيرها، وهي لم تجد الراحة بعيدة عن ذاتي.

في كلّ صباحٍ كانت تقترب مني وتمسح على شعري بحنانٍ لتوقظني كربيع دافئ فيه جميع أنواع الزهور مليئة بعبق الخزامى، ولكنني كنتُ

أصيح بها كخريف عاصف أحرق شجرها الأخضر، وأحيل ما بقي منها إلى رمادٍ منثور، أصيح بها مطالباً إياها بمغادرة غرفتي كي أنام دقائق أكثر تمنحني إياها شمس الصباح.

نظر إلى الأرض يفكر في كلماتٍ يحكيها، وبعد برهة قصيرة نظر إلى خالته وقال:

- أتدرين يا خالتي أنني بتّ أتمنى أن تعود تلك الدقائق لأكون لها صيفاً رائعاً وربيعاً دافئاً، لن أسعى للانتصار عليها، سأتغلب على النومِ وأمنحها هذه الدقائق فهي أحق بها.

لم يستطع لملمة شتات نفسه وعن الوقوف بات عاجزاً، لا الحياة رحمته ولا السقوط كان خياره.

ما تعرفه أمه فقط المعلومات العامة التي يعرفها جميع أهل الحي الغرباء، كونه طالباً في السنة الثانية من كلية التربية، ولكنها لا تعرف مسائله الخاصة ولا تعرف أوجاعه وهموم الليالي التي تغطّيه وهو عن الكلّ بعيد، يلقي بثقل همومه على صديقته ورفيقته روعة في الجامعة،

كانت جيدة في المواساة، فابتعد عن الجميع وعن البيت بأكمله بعد أن التقى سبيله بسبيل روعة.

أما أمه فهي خادمة البيت التي تغسل وتطبخ وتنظّف غرفته وغرفة أخته دون كلمة شكر واحدة، أو إطراء يخرج من فمه أو حتى ابتسامة صغيرة يلقيها في وجهها، يعلو صراخه إن عبثت بطاولة كتبه، يخشى أن تلمح صوره مع روعة أو رسائلهما الكثيرة.

لم يكن يعرف قيمة تلك الأيام التي كانت تحمل في ساعاتها فرصاً كبيرة للتحسن، للتجاوز، للإقبال من جديد، ولكن القدر لم يعطه إشارة قبل بدء النهاية، إذ كان كلّ شيء هادئاً ومريحاً، كلّ شيء يبعث على السكون، ولا إنذار لخطر وشيك، فمن أين جاءت والدته بهذه القوة؟ لتصفع الجميع هذه الصفعة القوية، كيف واتتها الجرأة على فعلها؟

بكى ماجد بين يدي خالته وهو يستذكر قسوته على والدته، أخذته في أحضانها تربت على ظهره حيناً وتمسح على شعره حيناً آخر. آه ما أجمل الحنان! لماذا حرم نفسه من هذه النعمة؟ حنان الأم لا يعادله حنان. بكى في حضنها كيومِ ولدته أمه، يستجديها البقاء بجواره إن رحلت أمه عنه،

يستجديها البقاء بجانبه العمر بأكمله، يريد التكفير عن ذنوبه ومحو الأخطاء جميعها، وإن كان كتبها جميعاً بقلم أزرق ناشف غير قابل للمحو ولا مجال للتراجع.

كان سعيداً مع روعة، شقياً في البيت الكبير، فلم تكن تطاله السعادة في البيت، هل الخلل منه؟ أم من البيت الكبير؟ أم من عمود البيت الذي مازال واقفاً أمام سريرها يعدّ خطاياه؟

نظر إلى صفاء بعد أن ابتعد بجسده عنها وقال:

- كانت ساكتة دوماً، لم أعرف أن في سكوتها ثورة من قهر، ولم أع حجم هذه الثورة التي خبأتها في صدرها إلا بعد أن صرخت فينا، كانت هادئة ساكنة وكأنها لا تعرف الألم، بارعة في نشر ابتسامتها وكأنها تعبّر عن فرحٍ يسكنها ولكن جرحها العميق كان ينزف من روحها.

أخذته ثانية في حضنها بعد أن سمعت منه كلمات ماحكاها لوالدته يوماً، وكم ودّت تلك النائمة سماعها منه كثيراً، لكنه كان يهرب منها على الدوام،

فيرتدي ملابسه بعجالة متذرعاً بموعدٍ هام مع أصدقائه، يهرب منها وهي التي كانت تهرب إليه من إهمال مالك لها ونفور رزان منها.

رنّ هاتف صفاء، ابتعد ماجد بجسده مرّة أخرى، لتحمل هاتفها وتجيب المتصل بهدوء، كان ذاك علاء زوجها، أراد الاطمئنان على رجاء.

- هل هي بخير؟

حين سمعت صوته بكت كثيراً، كانت تريد كتفه لتبكي عليه لكنه بعيد الآن عنها، قالت وكأنه إلى جوارها جالس:

- رجاء لا تردّ علينا، هي غاضبة منا.

- الأمر سيمرّ على خير، فيد الله مليئة بالعطايا المدهشة.

- وقفنا أمامها حيارى نبكيها ولا ندري إن كنا سنراها أم لا، أخشى أن يكون بكاؤنا الأول هذه الساعات، وبعدها يعقب هذه الليلة ليالٍ مؤلمة من الدموع النازفة.

- أودعيها قلبك وأمنية في الليل لا تغفو.

- دعوتُ الله كثيراً.

- إن كان قدرها، فالله اختارها لأنه اشتاق لرؤيتها. وإن لم يكن قدرها فهي زوبعة سترحل قريباً.

- أوّل مرة يا علاء أشعر بقيمة الوقت في هذه الساعات الثلاث، نحن نبكي ونندب، وهناك الكثير نيام لا يعرفون بأن الساعات تركض لاهثة إلى صباح سيشرق لهم، بينما نحن نسير الساعة ببطء شديد، وكأنها على موعد مع الموت تخشى وصول الصباح إلينا.

- الصباح سيأتي، فالأمل كبير وستأتي هي معه، طمئنيني عنها أرجوكِ.

حنون هو علاء، يحب رجاء كثيراً، وكان دائماً يوصيها بها ويقول لها "لا تفرّطي بحبّات اللؤلؤ، لا تفرطي في العقد أبداً، ستندمين يا صفاء إن فعلتها" كان يسميها عقد اللؤلؤ لأنه يراها في بيتها صابرة لا تشكو ولا تبكي.

كان دائماً يقول لها "رجاء هي حبة عينك الصغيرة ودواء همومك الكبيرة، لكم أتمناكِ أن تكوني في رقّتها وحنانها"، لذلك كانت تخشاها، تعتقد بأن علاء في الحبّ واقع، وأن رجاء قد نصبت له الشباك من بعيد، ولكن رجاء كانت في وادٍ آخر، وادٍ غير ذي زرع، وادٍ وحدها تمشيه ووحدها ساكنته، كانت تحترم علاء لأنه زوج أختها فقط، ولكن صفاء

كانت تراه توددا وتحبباً، لذلك بدأت تتكرّه إليها وتبتعد عنها، فإن هاتفتها بأنها قادمة لتزورها تعللت بألف مشوار عليها قضاؤه كي لا تأتيها، تخبرها بأنها بعيدة كل البعد عن المنزل، وكان علاء شديد اللوم ويعنّفها على ذلك كثيراً، وهو يقول لها "ستندمين، فلا تزرعي الأسى كي لا تحصدي الندامة"، كانت تلوي شفتيها بامتعاض وتقول في نفسها هل هي مخطئة في ظنونها، فهي تفعل ذلك حفاظاً على بيتها، وإن كانت رجاء بريئة فهل علاء بريء من ادعاءاتها؟

بعثت برسالة إلى علاء كتبت فيها "وماذا سيحدث بعد الندامة؟" ردّ عليها برسالة أخرى "التكفير عن الذنب، لعل الله يغفر ولعلّ رجاء تعفو"

نظرت إلى باب الغرفة المغلق، وهل تعفو من وقفت عمراً ببابها وهو مغلق تمنعها من الاقتراب خشية منها، وعلى بيتها كانت تخاف؟

أتصفح تلك الراقدة على سريرها لهجران أختها لها دون مبرر ودون سبب، وكأنها تعاقبها على ذنبٍ لم ترتكبه؟ أتمدّ لها يديها راضية بتوبتها؟ تتمنى لو يسبقها الوقت وتفيق بدلاً من هذا الانتظار اللعين كسجين ينتظر

لحظة إفراجه عن سجنه وتوقف قطرات الماء المنسكبة على رأسه، كهذا السجين الذي ينتظر العفو وفي نهاية الانتظار، كان الإعدام يترقّبه.

ربما تحتاج قبلة لتخرج من غفوتها، فكأنها الأميرة النائمة وهو الأمير الغارق في ظلام ذنوبه، وهي تأبى مغادرة حلمها الجميل كأنها رفضت الواقع بكلّ ما يملك وهربت إلى أحلامها التي أعطتها توبة وإقراراً بذنوب ورجاءٍ يقطر دمعاً.

مازالت جميلة رغم شحوبها ورغم الأجهزة المتصلة بجسدها الضعيف، جلس بجانب فراشها متجاهلاً إيلاف وكأنها غير موجودة في الغرفة مع أنها تتقاسم هواءها معه، احتضن يدها الرقيقة بكفّه القوي. هرب صوته وتاهت كلماته ومرت الدقائق بسرعة البرق وتوقفت عند الرابعة والنصف، إلى أين تأخذهم هذه الليلة المجنونة؟ إلى الحب؟ أم إلى ندم العمر المتآكل؟

كان حزنه أعظم من بكائه، فاستعصى عليه وتحجرت الدمعة في مكمنها، ازداد الصراخ وما عاد بوسع قلبه أن يصرخ أكثر من ذلك، اقتربت منه إيلاف وربتت على كتفه قائلة له:

- اطمئن... ستعود لنا.
- هل ستغفر يا إيلاف.

- لا أعرف... فأنا وإن اعترفتُ بجرمي فسأتلاشى أمامها، ولن أجرؤ على فتح هذا الحديث مطلقاً.

نظر إليها بدهشة متسائلاً، فأجابته بشرود وكأنها تستذكر ذكرى آلمتها:

- ربما لأنني لم أقع في حبك، لقد مشيتُ إليك بخطى ثابتة، وقفت في منتصف الحبّ أراقب النهاية ولم أقع في الحب.

- مازلتُ لم أستوعب.

- لو وقعتُ في حبك لكانت عذرتني لأن الحب ليس بمقدورنا، والقلب ابن عاق لا يسمع الكلام ويفعل أشياء يحاربها العقل، فتبدأ الخلافات ويبدأ التشتت والألم بالظهور. فالحب ليس لنا سيطرة عليه.

وضع يده على قلبه الذي مازال يؤلمه وتزداد ضرباته وكأنه يقترب من حافة الموت، أيموت قبل أن تستيقظ هي؟ لا، لا يريد ذلك، هل كانت اعترافاته هذه لأن نهايته وشيكة وهي ستبدأ بداية جديدة لا يكون فيها. ربما جلبت ذاك الملعون الذي كانت معه في السيارة ليصبح زوجاً لها، يعيش في بيته ويرتدي ملابسه ويعبث بأشيائه وينام على سريره بجانبها، وربما

يطرد ولديه من البيت، ستسعد معه إن عرف كيف يضحكها ولن تتذكره حينها، حتى بذكرى صغيرة ستبخل عليه، ستقول له بملء فيها "أنا من هذه اللحظة التي بدأتها معك عادت إليّ سعادتي التي غابت سنين" ستقول له أنه الحب الأول لها وستلعن روح مالك كثيراً حين تتذكر قسوته معها.

نفض الأفكار عن رأسه حين هزّه بعنف، وكأنّه يسقط كل فكرة سيئة تأتيه لا يرغبها. زاد الألم ما عاد يحتمله. هبّ واقفاً مترنّحاً وقال لها بصوتٍ مرتجف:

- إيلاف.... أنا.... قلبي

وقبل أن يكمل جملته خرّ على الأرض دون حراك، ركعت بجواره تناديه:

- مالك... أتيت لتضيء عتمتها لا لتنطفئ.

كانت القوة بادية على ملامحه إذن فلمَ خرّ ساقطاً مهزوماً لا منتصراً؟

هرعت إلى الباب تنادي الأطباء، ركض ماجد إليها وهو يناديه كي ينهض فلا وقت لديهم ليندبوا من جديد أمام جسد آخر، جاءت صفاء مع الأطباء.

يا إلهي ماذا يحدث في هذه الليلة الداكنة؟ وفجأة دُقّت طبول السماء برعدٍ كعزيف الجنّ، كطبول الجحيم كان ذلك بعد أن تفجرت السماء صواعق، ومزق البرق صفحة السماء وما هي إلا دقائق قليلة حتى سكبت السماء دموعها حزناً على رجاء أو على مالك أو على حيرة ماجد أو على وحدة رزان.

في هذه الدقائق كان مالك على سرير أبيض آخر وفي غرفة لا تصل إلى غرفتها، يحلم بأحلامٍ لا تشبه أحلامها فقد ينجو وقد لا ينجو، ربما يفيق ولا يجدها وربما تفيق ولا تجده.

حيارى في أروقة المشفى، خائفين من أن تكون هذه الزيارة الأخيرة لرجاء ومالك، ويُحتمل بعدها أن يقوم الجميع بزيارتهما في مكانٍ آخر، يقفون وحيدين وسط القبور ويصغون لزمجرة الرعد التي ستذكرهم بليلة سوداء كالفحم لن ينسوها.

عادت إيلاف إلى رجاء تنظر إليها بشغفٍ وإعجاب، من المؤكد أنها لعنة رجاء على مالك، بكل تأكيد تلعنه وهي نائمة، لعنتها لن تخيب أبداً لأنها الضحية وهو الجلاد.

كانت إيلاف صامتة وكأنها جاءت تشاهد فقط عدالة السماء لا يعنيها من أمر مالك شيء، كانت تنظر للغرفة بصمتٍ كصمت رجاء، يخيّل إليها بأن هذه اللحظات هي لحظات باهتة جداً بنظرها لا طعم لها ولا رائحة.

لحظات عديدة مرّت لا تستطيع فيها التحدث أو التفوه بحرف واحد، أنهكها هذا الصمت الأجوف، تريد أن تلفظ متاعبها لتستريح وتريح. نظرت إلى المطر الهاطل كالرصاص ثم انكمشت على ذاتها خوفاً من هدير الرعد المتواصل. ثم جلست إلى رجاء وكأنها تحتمي بها من غضب السماء، من المتوقع أن لعنة رجاء قد صبت على الجميع دون استثناء، ثم قالت بنبرة ترتجف:

- أتدرين بأنني أكثر منكِ سعادة لأنني لا أملك شيئاً يستحق من أجله أن أقفل الأبواب، أما أنتِ فكنتِ دائمة القلق والشك، في دائرة من الهواجس والوساوس، تسارعين لإغلاق قلبه بمئة قفل كي لا

تتسربي من شقوقه، ولا تدرين يا عزيزتي بأن نساءه كنّ يتقاسمن معكِ القلب والجسد وحتى الحب الذي حرمك إياه منحه لغيرك، ومع ذلك كنت أحسدك إلى آخر الحياة لأنك تملكين مالك، بالوقت الذي كنت أتمناه أن يملكني وأتملّكه.

ثم وقفت وكأنها اعتادت على هدير الرعد وأكملت بنبرة هادئة بعد أن استدارت لتواجه النافذة الغارقة بوحولة الأمطار:

- ماذا لو اكتشفتِ بأنني امرأة انتهازية ولم أكن يوماً صديقة لكِ. من المتوقع والطبيعي أن تلفظيني إلى الأبد، ولكنّ لديّ اقتراحاً يسعد كلينا، أقترح أن تحنّطيني وتخبّئيني في مقبرة ذاكرتك، فلا تنسي بأنني كنت جزءاً فاعلاً في حياتك، كنت أبثّك الأمل وأسرق منكِ الألم وكنت أفعل ذلك على عكس مالك، وربّما تنتقمين مني بإهمالك إياي وبعدم اكتراثك بي وكأنني لم أقاسمك يوماً همومك.

لكنني عدتُ إليكِ قبل أن تتألمي وقبل أن تسقطي، قبل أن تعرفي الحقيقة حطّمت قيود الحبّ وعدتُ إليكِ منتصرة تاركة مالك يعبث وحده

ويبحث عن أخرى لا تعرفك. عدتُ إليكِ غارقة في تيهي أبحث في ثنايا بيتك عن حبّ أملكه وهو حبي إياكِ، ولكن الحياة تستحيل بغير الحبّ، فمرّة أخرى تسلل إلى قلبي الغض وكاد أن يسقطه.

اقتربت من رجاء وأمسكت بيدها بعد أن قالت:

- من يقوى على إعاقة الحب؟ فهو كالسيل الجارف يصل إلى قلبك بسرعة عجيبة، كانفجار بركان ثائر غير متوقع، ومع ذلك نجحت في طرده بألم وانتظرتُ الحياة بعده بضلال وبؤس، ثم تركتها تمرّ بي فلم ترأف بحالي.

ففي كلّ مساء كنتُ أعود إلى بيتي، أتكور في موضعي على سريري وأنام متوسّدة وسادتي، ويبدأ صقيع قلبي بالانتشار من غرفة إلى أخرى، لذلك بدأتُ بخلق عالم خاص بي كي أعيش، ولكنني اكتشفتُ بأنني ميتة منذ زمن في عوالم الآخرين، وعدتُ إليكِ متناسية وزري الآثم وكأنني في قوقعتي كنت أتوب على جريمة اقترفتها بكامل قواي القلبية وبغياب عقلي الكامل.

أفلتت يديها ثم ابتسمت للحظات، المرّة التي تود التكلم عنها، والتي تحكمت فيها منذ فترة ليست بالبعيدة، ثم قالت بنبرة حزينة:

- ثم يا رجاء جلست بانتظار من يتقبلني بوجهي الهادئ وروحي الباهتة التي لا أملك سواها، طال انتظاري على أرصفة متسولي الحب، فأدركتُ بأنه لن ينتظر قدومي أحد ليسمع تفاصيل يومي شبه المملة من غير أن يملّ، لن أجد من يكذب علي كل ساعة ويخبرني بأن الغد أفضل ليهوّن علي خبث الأيام.

تعبتُ من الجلوس بانتظار من لا يملّ مني وقت ضيقي وهمي، ولكنني تفاجأت بأنني أنتظر في المحطة الخاطئة، فوجوه العابرين هنا محملة بوزر الخطايا وندوب الحب الأول، عدت إلى قوقعتي وأنا أحدّث ذاتي كل صباح بأنني لن أجد إنساناً يعيد إلى نفسي وشغفي وطاقتي للحياة.

أطلقت تنهيدة كانت تحبسها في صدرها، وخرجت بوجع في حلقها وبدمع كوى وجنتيها، ثم انهمر يسقي الأرض ماء لا يرويها، أفرغت ما في جعبتها حين همست بصدق:

- استهلكتني الأحداث سريعاً وأصبحت ضارة للبشر وغيرَ فعّالة للجميع، وبعد ذلك تجاوزت السنين والأحداث ولكن فقدت جلّ اهتمامي بالحياة، أدركتُ في النهاية بأنني غادرت الحياة ونفسي وكلّ شيء في اللحظة التي انتهت فيها الصبابة.

ألمّ بها الألم، لا ليس ألماً، فمن تكون في مكانها لا تعرف الألم، فهي في مكان أشبه بالجنة، إذن لمَ امتعضت واستاءت، ربّما اغتمّت لمالك على ما أصابه، ولكن مهلاً... هل رأته وهو صريعٌ على الأرض يلفظ أنفاسه الأخيرة فتلفظه الحياة وربما يلفظه الموت أيضاً.

شقّ عليها ما حدث فتوجعت رغماً عنها، ليس هنا وهي على سريرها تستمع إلى ثرثرة إيلاف، وإنما هناك في عالمٍ غير موازي، في عالم لا يرتاده سوى الضحايا المتألمين والباحثين في أعين جلّاديهم عن أمانٍ واطمئنان. الأمان الذي ما هنئت به يوماً وما وجدته في حياتها، ولم تفرحها هذه الكلمة يوماً.

هلا تلاقيا في الأحلام؟ كلاهما يحلم بلقاء يدوم سنين لا تحصى حتى يجيء اليوم الذي يشيخان فيه معاً، أم إنها فقط من تحلم به وهو يسير وحده في صحراء حلمها بلا هوادة ولا بوصلة تدله على طريق قلبها، وصل إليها ووقف في الطريق الصحراوي ذاته يندب ويجهش بالبكاء. استدمعت عيناه فجلس على الأرض حافي القدمين معفّراً بتراب الخطيئة. اقتربت منه في حلّتها الخضراء التي زادتها جمال على جمال، بهية المنظر، مرهفة

الإحساس، رماد عينيها يتلألأ في وهج الشمس كالفضّة. جلست قبالته وكأن لا حاجز يفصل بينهما. هذا الحاجز الزجاجي اللعين العابث بعبراته والشامت لسقوطه والهازئ بفساده.

نظر إليها وقال لها:

- كأنك فراشة ملوّنة بأبهى الألوان تقف على كتفي وتصغي إلى همساتي، عودي إليّ.

ابتسمت لسخرية الأقدار، ثم قالت:

- من يعود إلى من؟ أتعود أنت إلى الحياة لأعود إليها؟ كتفك يا صديقي ليس الأمان الذي أنشده، أخشى أن تكون جحيماً وبلهيبها أستعر.

- ألا ترين بأن قلبي قد مسّه شعاع من نورك، كتفي لن يكون جحيمك بل هو جنّة فيها تمكثين.

- كقلبك الذي أسكنتني فيه جارية وأسكنت البقية أميرات يرتعن ويضحكن.

- اغفري لي ولا تسافري في أحلامك كثيراً، فربما تتوهين دون أن تملكي تذكرة للرجوع.

- لكنني مازلتُ ماكثة في مكاني.

- أخشى أن يطول حلمك يا رجاء، فلا تقدّسي الأحلام أكثر من ذلك ولا تعيشي في دهاليز ذاكرتك السريّة.

- وحدك من يعيش في دهاليز الذاكرة، لأنك الأقرب إلى الروح، ولكن خيبتي بك كبيرة إلى الحد الذي لن تقوى بحار العالم أجمعها على إطفائها.

- لذلك أنا هنا وقد أتيتك بدموع الندم تكوي القلب وتذبح الروح.

- كم مرّة جلستُ في الثانية صباحاً لأخبرك بأنني لستُ بخير، لكن تمر الساعات ولا أجد سوى الوحدة تأتيني فتعانقني، لم أجد في وحدتي هذه من أخبره بأنني لستُ بخير. عانقتني الوحدة كثيراً في ليالي الشتاء القارسة. حتى النوم لم يكن صديقي، فحين وجدني متعبة هجرني بدوره.

حاول أن يتكلّم، لكنها أوقفته واتجهت إلى الباب قائلة:

- كنت أخاف عليك من التعاسة والانكسار، يؤلمني انهزامك وأنا منك أستمدّ الشجاعة، خشيت عليك من فجائع الدنيا الصغيرة قبل الكبيرة، قلبك هذا الذي منحته لنسائك كنت أخشى أن يعيدوه لي مكسوراً وأن يشعروك بالضيق والألم، ولكن مع ذلك لم يكفك قلبي لتكون بخير، فكنت بخيرٍ مع الجميع ما عداي.
- لا تتركي الأيام تترنح بيننا، واعفي واغفري، فغداً ستزهر في ليالي الجزع أياماً هنيئة.
- لا توقعني في شباكِ كلماتك، هذه الكلمات ذاتها التي ساقتني إلى بداية الحبّ ثم فطرت قلبي في النهاية.
- لا تقولي إننا في النهاية، مازلنا نحاول... لنبدأ من جديد... أرجوك يا رجاء.

صرخت بدهشة عقدت لسانه:

- مازال القفل بلا مفتاح.

صرخ بدوره واقترب من الباب وصار مواجهاً لها:

- لا تقولي إن توبتي ليست صادقة، ماذا أفعل كي تصفحي؟ أمزّق نفسي؟ أم أمزّق رداء الزلّات؟ ألا ترين بأن الأمر انتهى بي إلى سلّة صيادٍ وأنا دون أقدامٍ ودون أجنحة، فكيف السبيل إلى الخروج منها؟ عاقبتُ نفسي كثيراً وأنا أحاوركِ منتقماً من ذاتي حتى سقط قلبي الذبيح بين أضلعي يلهث باسمك، فلم يعد يستطيع مقاومة شعور الندم أكثر من ذلك.

نظرت إليه ببلاهة شديدة وكأن الأمر لا يعنيها، وتركته لترحل عنه. ناداها بصوتٍ قوي فاستجابت لوقع النداء في قلبها.

- رجاء... يا رجاء ستنقلب الأدوار قريباً، ستفيقين وتبدئين باعترافات جمّة، اعترافات لم أعرفها من قبل، وربما سيفوت أوانها وستندمين.

استدارت إليه وقالت بهدوء:

- فات أوان الاعتراف.

- لا ... لم يفت بعد... فأنا مسجّى الآن على سريرٍ مثلك... أموت كي تحيي أنتِ.

- وماذا إن متنا معاً؟

- وتموت الحقيقة معك؟

- إن كانت الحقيقة تعنيك حقاً فابحث عنها بعيداً عن أرضي، ولا تعبرني مرّة أخرى لأنها لا تعنيني.

وتركته يندب شمس الندم الحارقة وصحراء الألم تكوي قدميه. بانتظار الأمل الذي سيولد مع مفتاحٍ يفتح إلى جنتها.

ولكن إن تلاقيا في الجنة هنا في أرضها، فهل سيكون هو الآخر معها في سماءٍ تجمعهما، ربما حينها ستقبل الاعترافات جميعها وسيعفو القلب ويصفح. ولكن حينها لن يكونا في أرض ابنيهما يتشاركان معهما هواء يتنفسونه وبيتاً يحبونه.

(إلى مالك:

أتجوّل حول فؤادك في صقيع ليلة كانونية كما تتجول ريشة في مهبّ الريح، هل كلانا نصل؟ متأثرة بك كثيراً وهذا ما جعلني أشعر بكوني تائهة في متاهتك الكبيرة ولا باب خروج لها. أغوص في محيط عينيك فأغرق دون أن تنجدني يداك، لذلك أنت مدين لي بجميع أنواع الاعتذارات كي أهبك حبّاً لا ينضب مع السنين.

إلى مالك:

سأتفنن في الهروب منك إلى سُبلٍ لا تزورها. تأتي بك مصادفة ماطرة لتنثرك في دربي مهيمناً على ذاتي لأنّك وحدك سالب راحتي وأمانيّ.

خذ بيدي حين أراك في نهاية الدرب الموحش، تنتظرني هناك وحدك، خذني إلى رصيف الحبّ نجلس معاً وتحكي لي حكايا الجدّات. أولستُ أنا بطلة الحكاية ولأجلها كُتبت الرواية.

لا تتركني أتوجّس طريقك، فلا تركنّي على رصيف الوحدة أستجدي المارة الفارغين بلوعة الحبّ الأوّل والقبلة الأولى والعطر غير المنسي. لا تتركهم يلملمون شظايا روحي يجرحون بها ويلعنونك ألف مرّة.

عد إلى ذات الدرب واسلك ذات السبل، ستجدني على ذات الرصيف بانتظارك لأنّك وحدك ساكني ومسكني، أماني ومأمني، راحتي وروحي.

إلى مالك:

ليتني التقيتُ بك قبل وجعك القديم وفقدانك الثقة بالجميع، قبل أن تعرف ما الفقدان وما الخذلان، وقبل أن تفقد شغفك بالحبّ.

إلى مالك:

لقد نويتُ حبّك حين رأيتك، ولكن قلبك ما نوى الحبّ، أهواك في أحلك اللحظات وأغرم بك في روعتها. أتدري أن العالم سينتهي قريباً وإلى الآن مازلتُ أشعر بصقيع قلبك.)

كانت هذه ورقة قد طويت بعناية بقلب الدفتر الأزرق، وقعت منه حين حملته رزان لتكمل القراءة، فرمته بعد أن صرخت بقوة وانكمشت على نفسها من زئير الرعد مع أنه سبقه وميض يخطف الأبصار، ولم تنتبه له لأن عقلها كان مشغولاً بمتابعة القراءة، هُتنتْ السماء بعدها وانسكب المطر مدراراً تستحم الأشجار بعبراته، حملت الورقة وقرأت رسالة غزلٍ مع عتابٍ واضح المعالم، ولا يوجد عليها تاريخ محدد.

كانت مغرمة به كثيراً، وهو كان يكره هالاتها السوداء وعقدة حاجبيها، يكره أظافرها القصيرة ويمقت كآبتها وجمالها الحزين، يخاف عينيها كثيراً المتمثلة برماد بركان، والتي لا تتسع سوى للدموع. أما هي فتحبّ كل ما فيه مزاجيته وأفعاله غير المسوّغة وحتى سيئاته، ومع ذلك لم يهرول إليها يوماً ليخبرها بحبّ نبت في قلبه، كان يخشى من البوح بما في قلبه ويخشى أن يظهر حبّه إياها، فتغضب نسرين وهي البعيدة عن عينه القريبة من فؤاده.

أكملت القراءة:

(لم أتعمد حبّك ولكن قلبي هوى في بئر هواك، فصرتُ بين مطرقة وسندان، تارة أدعو الله أن يخلصني من نار حبك، وتارة أتمنى هذا الحب جنّة أتوه بها وألعب).

(كنتُ أراكَ حين حضورك هالة مغناطيسية أتناثر عمداً كي تجذبني إليك، ولكنك تحيد عني كقطعة بلاستيك لا قيمة لها، تبتعد كارهاً وجودي بجوارك، فتتركني مبعثرة الشتات غير قادر على لملمة أجزائي بسهولة).

(أحببتُ ظلامك ولم تحب فيَّ نوري، والذنب ذنبي، فحينَ أحببتك بعمق آذيت نفسي بمقدار عمق حبّك).

أحبّته كعادة اعتادتها، وعاش معها كشيء مسلّم بها ضمن بها وجودها فأضاعها، كتلفاز في بيته يراه ويشاهده، ولم تأت فكرة خطيرة أن يختفي التلفاز من حياته. لم يصل بفكره إلى النهاية، ككل الأزواج يفكر بحياته بعادية لا يشوبها القلق إن كان هو أو ولديه. لذلك أهملوها تاركين الأيام تداوي جراحها، وكل واحد منهم يبتعد عن الآخر بمسافاتٍ ليست بالقليلة، وكأنّ هذا البيت ليس مأواهم بل فندق يبيتون فيه ليلاً وفي النهار كلّ يبحث عن ليلاه تاركين رجاء غارقة في تنظيف البيت الكبير وابتياع الخضراوات والطهي ثم إعداد الغداء، وبعد ذلك يأتون ويجلسون معاً كجذوع أشجار محروقة، التربة تربتهم والقلب في مكانٍ بعيد، لا هم يستطيعون الاقتراب ولا هي قادرة على الابتعاد. وفي النهاية حدث ما حدثَ حين صرخت، وصراخها كان أقوى من دويّ الرعد، وبعدها عرفوا أن النهاية تأتي في وقتِ لم يخطر على بالهم. تأتي في وقتٍ لم يكونوا مستعدّين لها جيداً.

النهاية تأتي بلمح البصر، كوميض البرق في لحظة خاطفة، وتترك الجميع حيارى يتساءلون متى كان ذلك؟ فالكلّ لم يكن مستعداً للضربة القاضية، ومن المحتمل أن تكون هناك نهاية أخرى هي أقسى من الأولى، فالنهايات تتوالى تباعاً، وفي كلّ مرة ستقصف أقدامهم كيّ يخرّوا إلى الأرض باكين، داعين الله المغفرة على خطاياهم الكثيرة.

لو أنهم فقط عرفوا أن لحظاتهم في الحياة هي لحظة مؤقتة، فهم عابرو سبيل وعليهم إعداد الحقيبة للسفر فلا يغرنّهم مكوثهم الطويل هنا، لو أدركوا ذلك قبل فوات الأوان لما حدث ما حدث. وما كانوا تركوها في صمتٍ يذبحها، ولكنهم ضمنوا وجودها فآذوها بمبدأ أنها ساكتة لا تتكلم وربما لا تشعر أيضاً. كصنم وضع في العراء تحت مطرٍ غزير، تنسكب دموعه من خلال قطرات المطر، لا هم رأوا عبراته فمسحوها ولا هم جلسوا بجواره يصغون إلى صمته الحزين، كان صمتها أشد صخباً من الرعد ومطره، فلم يسمعوه وتظاهروا بالصمم حتى زئرت بوجوههم كلبوة ذبيحة تطالب المجتمع الدولي بإحقاق الرحمة والعدالة في لحظاتها الأخيرة.

رسائل والدتها مفعمة بعبق الحب الذي لم يصل منه شيء إلى الآن.

اقتربت من النافذة تنظر إلى الغيوم وكيف تقنّعت بها السماء، يا لها من ريح مجنونة جلدت الأشجار.

ارتجفت برداً، رعباً، خوفاً، حزناً، بملامح باكية دون دموع، تحجّرت العبرة من البرد، ومن المحتمل أنها تنتظر الساعات القادمة لتنسكب بقسوة كمطر الليلة المدرار.

تخشى أن تتراكم الأوضاع في قلبها، وتنفجر مثلها، ولكنّها تصبّر ذاتها عسى الله ينقذها من داء هي فيه، وكل هذا وهي لا تعرف المصيبة الأخرى، أي سقوط والدها مغشياً عليه، كلّ هذا وهي تقرأ أحرفاً مرتجفة لن تصل إلى أذن مالك، هل يسبقها بالهرب من الحياة؟ أم يأخذها معه إلى هناك حيث الراحة، وإن كان سيجدها مالك ولكن هل تجدها رجاء؟

رهيبة هي التراكمات، مروّعة بشكل مخيف، تشكل رصيداً من اللعنات داخلنا، وفي لحظة زهيدة قصيرة تنفجر كبركانٍ تحرق الأرض ومن عليها، ومن ثم تتحوّل إلى أرضٍ شبه ميّتة ومن الصعب أن تحيا مرّة أخرى. ومن هنا تنعزل عن العالم الخارجي، تنعزل بنفسك فقط تاركاً لهم إثم الظنون، وبعدها بمرور الأيام تبدأ بالضياع والانكسار، بالآلام ومختلف الأمراض، وكلّ ذلك وأنت وحدك دون أن يعرف أحد ما تمرّ به وما مررت به، لا يتذكّرون سوى لحظة انفجارك ويعدّون لك السنين وهم يذكّرونك بقسوتك هذه وبأنانيّتك أيضاً. وفي النهاية لا أحد سيفهم الآلام التي تجرعتها سابقاً، ولا أحد سيفهم أحاسيسك التي قتلوها أمامك بجرأة وببشاعة، كل واحد منهم رسم في ذهنه صورة محددة، الصورة الخارجية التي رأوك بها، لذلك لم يفهموا ردود فعلك وتغيّرك غير المباشر، الطرف الآخر يريدك دائماً أن تكون كما رسمك في عقله وليس كما أنت بمشاعرك وأحاسيسك.

أليست هذه حكايتها؟ وهي بطلة الحكاية وجميع من معها أبطال ثانويون يخدمون البطلة، ويبكون في كهف أمام جيدها في لحظة مريعة للجميع.

ولكن كيف انتقلنا من حكايةٍ إلى أخرى، من غرفة رجاء إلى غرفة مالك، لن نلقي بمشاعر رجاء في سلة المحذوفات، ولن نحذف أحلامها البائسة وأملها في ذرف المزيد من عبرات الندم، هي تحلم به وهو يحلم بنسرين، وبعد ذلك يأتيها أمام محرابها يبكي ويتساءل لمَ ليست توبته صادقة؟

هرب إلى حلمٍ جميل، وهناك رآها تطوف في حلّة سوداء، فهي طوال عمرها كانت متشحة بالسواد حداداً على حلم مات بين يديها، فقد كانت دائماً تقول له إن السواد يليق بها لأن حياتها أكثر حلكة من هذا الثوب. جميلة هي نسرين في ثياب الحداد، كان قصيراً يصل إلى حدود ركبتيها، جديلتاها الصغيرتان أضافتا جمالاً فوق جمالها، قالت بحزن أحزن قلبه:

- ما عدتُ راضية باعتذارك، كدماتي منك عميقة لا يداويها الاعتذار.

أليست هذه الجملة هي جملة رجاء؟ لماذا يحملونني إصراً لا أطيقه؟

أردفت وهي تنظر إلى تراب الخطيئة يتلوى بين يديها:

- وإن تأسفت، وقبلتُ أسفك هذا فلن يعود الحبّ الذي في قلبي كما كان.

نظرت إليه وأكملت:

- كنتَ باكورة حبي، لم أنتبه في البداية لخطواتي حتى تهتُ في حبّك بغير قصدٍ مني، كانت العودة صعبة لأنني ما كنتُ أستطيع وما كنت أقوى على التحمّل، ووزر حبّك مخبّئاً بين الضلوع، خائفة عليه من سارقي الهوى أن يسرقوه فيبيعوه، وأنا التي بحثتُ عنه كثيراً حتى وجدته، حينها التفتُ بفضول نحو همساتك الرقيقة، فقفز القلب متيّماً بحبّك ويا ليتني ما التفتت.
- الاعتذار يا حب عمري الأول ثقيل على ذاتي ومع ذلك أتيتكِ معتذراً، وبي أملٌ لا يخيب أن تصفحي وتعفي.
- إذا كان الاعتذار ثقيلاً على نفسك، فإن الأذى كان مرهقاً على نفسي، كان حوباً كبيراً، لن تغفر لك سنوات عمري التي أضعتها هباء بانتظارك.

وضع يده على كتفها وقال:

- في قلبي لكِ ندم وعلى لساني كلمات فاقت كلمات الأسف جميعها، أعترف أنني أجرمتُ في حقّك حين كسرت فؤادك، وأعتذر إليكِ بأحرف اللغة قاطبة.
- أيصلح الاعتذار ما كسرته؟ هل أضع على الفؤاد لاصقاً فأشوّه جماله؟ كقبلة اعتذار توضع على جبين ميّت، أم يوقف الشرخ النازف بضمادة تملؤها دماء بريئة؟

ألجمت لسانه وهو ينظر إلى تراب الخطيئة بين يديها، ثم قال بعد تمعنٍ وتفكير:

- لمَ أسموه تراب الخطيئة؟
- لأنك وأمثالك جُبلتم منه، فكلّكم خطاؤون مذنبون.

نظر إليها وإلى اتهامها الصريح وهو يفكّر أيعتذر لمن ولمن ولمن... هو مذنب في حقّ الجميع، سيقدّم حين يفيق سلّة من الاعتذارات، أوّلها إلى نفسه حين لم يكن لها سنداً ولم يكن لها رجلاً.

في قرارٍ خاطئ اتخذه وفي لحظة غضب خسر نسرين، وضيّع رجاء، وشتت مالكاً ولم يهتد إلى سبيل، وظلّ في عناده قابعاً في الظلّ رافضاً النور الذي يأتيه منها، رافضاً هدم بيت بناه دون وعي منه، بناه بشكل خاطئ ليميل في كلّ سنة ميلة صغيرة، وبعد سنين عديدة عددها اثنان وعشرون عاماً خرّ البيت ساجداً، وكل اللائمة تقع عليه هو، فما كان منه أن يشيد اللبنة الأولى في هذا المكان، في مكان لا يرغب فيه ولم يفكر به يوماً، وبلحظة الغضب ذاتها التي بناها بلحظة غضب مماثلة من رجاء سقط البيت في حادثة جعلت الجميع يندبون ويعتذرون ويبكون ويسوّغون. وباب التوبة مازال مغلقاً دون مفتاح.

تعجز الحروف أن ترتّب ما بين السطور، عاجزة صفاء عن مدّ يد العون إلى أختها وزوجها، نصف قلبها مازال غائباً عن الوعي وعن الحياة، وبهدير الرعد وقع مالك أرضاً، فالسماء الآن غاضبة وتنفّذ عدالتها في مالك.

اقتربت من غرفة أختها ودخلتها بهدوء، مازالت ترى إيلاف الدخيلة جالسة بجوار رجاء، رمقتها بنظرة غاضبة محذّرة إياها أن تغادر المكان، هي أختها وتريد الاختلاء بها دون أن يكون في الغرفة من يتلصص عليهما ويستمع لأحاديث العتاب والأسف. فهمت إيلاف على الفور نظرات صفاء فاعتذرت وخرجت لتجلس على الكرسي بين الغرفتين، على يمينها صديقة غدرت بها يوماً وعلى يسارها حبيب كان سيصبح بمرتبة الزوج.

جلست صفاء بجوار أختها على السرير، وأمسكت بيدها تنظر إلى انسكاب المطر وضربه المتواصل على النافذة. شردت في ذاكرتها إلى البعيد، هناك حطّت حين كانت تعتبر أختها بطلتها الخارقة ورفيقة دربها، أجمل الأوقات قضتها برفقتها، وبقربها كانت تشعر بالأمن والأمان. سألتها بنبرة متهدّجة من الحزن:

- أتسامحينني على نفيك خارج حدود مساحتي، مع أن وجودك في حياتي كان وجوداً أبدياً لصديقة دائمة لا تغيب ورفيقة أولى للطفولة، ومع ذلك حاولت إقصاءك بعيداً عني.

كنتِ تعتقدين أنني الصخرة التي بإمكانكِ الاستناد عليها حين تكبرين، لكنني انزلقتُ بانسيابية سلسة فأوقعتكِ عمداً دون أي تبرير. لم أكن أختاً نافعة لكِ بل كنتُ شرّاً مطلقاً، ومع ذلك لم أنكر بأنني كنتُ أعرف أن هناك خللاً كبيراً، لذلك كنتُ خائفة منكِ أن تدمري بيتي.

اعذريني، إذ كان بين يديّ نعيم الحياة، وبلحظة عنجهيّة فقدتك دون أن أشعر ودون أن أدرك ذلك، كنتِ أماً ثانية لي وكنتُ ابنة عاقة لكِ، فهجرتكِ بدمٍ بارد ولم يشفع لي حزنك الصامت.

الآن أدركت بأن الأخت لا تعوّض، مهما أحببتُ من الناس، ومهما تسرّب حبهم إلي، تبقين أنت الملاذ والحضن الدافئ، فأنتِ الأقرب إلي منهم والحصن المانع من ويلات الحروب.

ما الذي بدّل حالها لتبكي تراجيديتها التي صنعتها يداها؟ هل ظنّتها خالدة لتهملها هكذا؟ أم نسيت أن هناك لحظة من اللحظات الكثيرة سترحل رغم الجميع؟ سيتذوّق الجميع ألم فقدانها ولن يسعفهم الوقت ليعتذروا في وجهها، فاعتذاراتهم الكثيرة مازالت وقف التنفيذ طالما لم تصل إلى وجهتها.

ربما هي نائمة فقط، هاربة منهم، أرادت عزلة بعيدة عنهم فلحقوا بها يثرثرون ويبكون لخطايا ما كانوا ليتفوّهوا بها لولا وجودها هنا على سريرها الأبيض.

أرادت النوم فقط مئة عام، ألف عام، وبعدها تستيقظ على أمل نهاية العالم دون أن تلحق بالوقت لتلبية رغباتهم، فبثّ كلمات الأسف التي يربطونها بسطرٍ طويل اختصاره "نحن آسفون" لن تفيدها الآن.

لماذا الكلّ مجتمع عندها الآن؟ وهي التي كانت تستجدي الوقت منهم، والآن هم يمنحونها إياه ببذخ في ليلة دعجاء حالكة مجنونة الأعاصير والرياح.

في صقيع فبراير جاؤوها متراكضين يمنحونها وقتاً بخلوا به منذ أيام وأسابيع وحتى سنين.

قلبها اعتاد على نثر بذور الحب، وقلوبهم ما سقت البذور ولا اعتنت بها، أهملوها فصبرت وصمتت وما اشتكت، فعجاف يومها لم يعقبها غوث، بل تلتها أيام عجاف أبكتها وأمرضتها وما داوتها. ما التفتوا إلى جراحها يوماً وهي التي كانت تلتفت إلى تأوهاتهم الصامتة النازفة دون أن يظهر ذلك جلياً على وجوههم، غزلت لأجلهم خيوط الودّ وما اكتفت، ولم يغزلوا لأجلها كلمة واحدة تطيّب صمتها الكسير، لذلك صرخت حين اشتعلت شظايا حربها الداخلية، كانت تظنها بداية تبدؤها، ولكنها كانت النهاية، ومع ذلك لم يأبه لصراخها أحد بل تجمد الكل في مكانه ينتظر انتهاء المسرحية ليصفق الجميع.

لم تؤذ أحداً سوى النافذة والكأس. غادرتهم بأسى لأن رغبتها بالبقاء انتهت، وهذا أشدّ ألماً من الكره، لم يتمسّك بتلابيبها أحد. تركوها لزمجرتها الصاخبة، ولكن هي الأم والزوجة والأخت والابنة التي لا تعوض، هي الصديقة والصاحبة والرفيقة والمعينة والسند التي لا تستبدل، لا يمكن إبدالها بأخرى ولا تصحّ مقايضتها مع أحد. هي أحد أعمدة البيت وارتكازاته، فلا ينفع معها استبدال.

نظرت صفاء إليها مرة أخرى وهي تخشى اعتياد الجلوس هنا على سلالم المشفى وبين أروقته، تخشى أن تطول المحنة ولا تنجلي بساعات، تخشى أن تصل إلى أيام وأسابيع وربما شهور.

ولكن أين كانت دمعتها هذه، ورجاء تعيش الوحدة ولا تجد من يشاركها فرحتها وحزنها. كانت كأرجوحة صغيرة في قرية مهجورة لا أطفال فيها، كناي حزين يصاحب رجلاً مبتور اليدين، ككرة قدمٍ في صف أهله مشلولون.

كانت وحيدة كعصفورة تغنّي على غصن مكسور، ومع ذلك كانت لطيفة مع الجميع، التمست لهم الأعذار وعدتهم يخوضون معاركهم

الخاصة، لذلك هم دائمو الهروب والصراخ، ومعركتها الخاصة التي تخوضها هي معركة باردة لا يراها أحد.

لم يسمع صمتها أحداً لأنها كانت مبتسمة دوماً تخبئ حزنها خلف ضحكتها، وتظهر ضعفها على هيئة صلابة، بارعة في إظهار برودها وإن كانت في أشد احتياجاتها، ضحكتها مليئة بالشجن، تفتقد الجميع ولا يفتقدها أحد. كانت ترغب بمن تأتمنه لتستكين وتطمئن، ولم تجد أحداً يحتويها.

مسكينة إيلاف، ممنوعة من الدخول إلى غرفة مالك، ستثير حولها الشكوك والأقاويل إن لمحوها تبثّ اعترافاً سرياً، مطرودة من غرفة رجاء فالأقربون أولى بزيارتها، تركوا لها الرواق بطوله، وجلس ماجد في غرفة والده، وجلست صفاء عند أختها وهي جالسة في منتصف الغرفتين شاردة في كلّ شيء وفي كلّ حدث، وكلّ كلمة خرجت من الفم.

ستكفّر عن ذنبها حين تستيقظ رجاء، ستتبعها إن توجهت إلى مكان مظلم، ستظلّ إلى جوارها، وإن لزم الأمر فستحرق المدينة لتضيء لها الطريق فهي كنز حياتها، ولكن خطأها كان حين دفنت الكنز في التراب بيديها العاريتين، ووقفت بجانبها تلعن الصداقة، فلولاها لفرحت بما بقي من عمرها بجوار الحبيب اللعوب.

تعبت من الجلوس فصارت تتمشى في الممر الطويل، تتذكر ساعات السمر وإياها، الوقت يمرّ وعقارب الساعة تركض وهما غير مدركتين للوقت، ساعات كثيرة من الحديث المتواصل، والوقت يركض، وهما غير عابئتين بعقارب الساعة المجنونة اللاهثة نحو النهاية.

وقفت وأسندت ظهرها إلى الجدار، يداها خلف ظهرها وفي عينيها تكورت نصف دمعة، كانت تجاهد لتخرج فقالت في سرها، ولم تعلنها على الملء خشية البوح بأمورٍ تخجل منها، الكل يظنها نقيّة، ومن رحم الطهارة والعفّة ولدت، لا يعلم أحد من تكون سوى ذاك القابع في جحيم غرفة أخرى، لا يحلم ولا يفكر بها، فهي بنظره امرأة مرّ على جسدها كما مرّ على جسد الأخريات، وانتهى أمرها ودورها في حياته وقالت:

- كنتُ صديقة لكِ في السراء والضراء، ومن شدة صداقتنا كان الجميع ينادينا بالإخوة، ولكن ما غيّرني هو حبيب لي وزوج لكِ، هو حديث غريب أنشأناه في دجى الليل، كنتِ نائمة تحلمين وكنا نحقق أحلامك كلانا، وأنت لا تفهمين.

يا صديقتي... أنت شيء أعمق من الصداقة، أختٌ في مرتبة صديقة ، كنتِ تلمحين الألم في عينيّ في حين أنّ الجميع كان يصدّق ابتسامتي، تسألينني عن شرودي الدائم، ولم تعلمي بأن هذا الشرود يخصك كما يخصّ بيتك وسكنك، لو كان لي أن أفعل شيئاً جاداً لجلستُ أمام عتبة بيتك وقصصتُ عليكِ مكيدة كدتها مع زوجك، ولتمنيتُ حينها أن تعفي وتغفري،

لأكون لكِ نبضاً لا يفارق قلبك أبداً... أفيقي لتخففي من ضجيج الحياة بصوتك، أخبريني أن الحياة ليست بهذا السوء وأننا سننجو منها، لن تفرّقنا الحياة أكثر من ذلك وأعاهدك أنني سأبقى العمر بأكمله حتى يأتي ذلك اليوم ونضحك معاً دون أسنان. عودي فأنتِ بطلة الحكاية، والأبطال لا يموتون، بل يولدون في كلّ صفحة ويزرعون الحبّ في السطور.

لا بطل من الأبطال يموت، وإن كان كذلك فالرواية حينها لم تكتبه بطلاً ولم تسند له مهام البطل، ولكنك بطلة حكايتنا، فنحن لأجلكِ اجتمعنا ولأجل ندوب روحك استيقظنا، ولأجل صمتك هرعنا وجزعنا، فكوني بخير لأجلنا.

تريد رؤيتها لتبكي بجوارها، ترغب فقط بالتحدث معها كي تخرج كلّ الكلمات التي تتزاحم في داخلها وتقلقها، كل ما تحتاجه أن تتحدث بالساعات أمامها كي تصبح على ما يرام بعد أن تفرغ ما في جعبتها من كلام حبيس، لم يصل إلى أذن أحد.

تمشّت قليلاً ووقفت بجوار باب غرفة رجاء، أسندت رأسها على الجدار وتفكرت بيأسٍ في عفو صديقتها الذي طال، فمن المحتمل أنها لن

تسامحهم ولن تعفو عنهم ولن تقبل توبتهم. ستتمنى لهم الشعور ذاته بالقوّة ذاتها ليحملوا أوزارهم فوق ظهورهم قابعين تحت شمس الندم، يحومون في صحراء الحسرة، فالدنيا ستدور والمشاهد ستعاد والأدوار ستتبدل.

في فمها حديث قد شُرخ يخدش حافة هتافها، حين أشرقت شمسها لم يحبها أحد، وحين هبت عواصفها هرب منها الجميع. لم يراعوا مشاعرها ولم يتلطفوا بأفعالها. تقلبت قلوبهم فوقعت منهم ومازالت تنتظر أن يعيدوها إلى القلب ذاته الذي أسقطها، ولكنهم كسروا خاطرها وما جبروه، كخطأ طبي أودى بحياة مريض، فالاعتذار فيه لن يعيد من مات.

أدهشها تحملها، كانت تظنّ في كلّ مرة أن الطريق اقتربت نهايته، لكنها كانت مخطئة فالطريق طويل وخطواتها المتعبة لن تساعدها في الوصول إلى نهايته، كان عليها الجلوس ساعات كي تستعيد أنفاسها وهدوءها لتكمل المسير، لكنه في النهاية هدّ جسدها وأقعدها عن إكمال المسير، لذلك كان صمتها هادئاً كصمت القبور.

تصمت ما بين الحرف والحرف، لأنها تدرك أن الكلام في حرم الجرح أشدّ ألماً من سفك دمٍ بريء. لم ينتبه أحد لتوهج عينيها فهو نتيجة احتراقها من الداخل، لم ينتبه أحد لندوب روحها التي كانت تحتل كل جزء من جسدها.

كان مالك مجحفاً في حقّها حين أراد امتلاكها قصّ جناحيها بدافع التملك، كان على شجرته عصافير كثر تغني له، وعلى موسيقاه تتمايل وترقص، ولن تمانع حينها أي واحدة منهن أن تكون بديلة عنها.

في حلمه كان هو البطل، وفي حلمها كانت هي البطلة، هنا تشاركه نسرين، وهناك يشاركها هو.

رأى نسرين تبتعد بثوبها الأسود وضفيرتاها تتمايلان في دلالٍ على كتفها، هرول إليها معتذراً، التفتت إليه وشبح الحزن يرسم خطاً حول فمها الصغير، وقالت له بصوت الألم:

- أنت لم تغامر من أجل حبنا، فخسرتني في صمت.

على الطرف الآخر كانت رجاء، رآها متعبة قد هدّها المرض وأوحشتها الأجهزة الغريبة المتصلة بجسدها.

ابتعدت نسرين ولم تقترب رجاء، بينهما نهر سريع الجريان، بينهما خرائط من خيبات ومدن من انكسارات، بينهما بحور الندم وصحوة الضمير، اقترب من النهر ومدّ يده إليها لعلّها تراه، ناداها بصوتٍ عالٍ، ومع ذلك لم يصل إلى أذنها:

- رجاء.... رجاء.... هلمّي إليّ... لا تتركيني في حيرتي ويأسي.

تعالي يا أملي.... تعالي نعيد رسم الخرائط ونحترم الحدود ونلغي القيود... تعالي يا دنياي لننس نهايات الأشياء، نعيش في بداية البدايات، لن

نعشق أحزاننا وسنفرح لأوقات سعادتنا، سأغفر لكِ جرمك الكبير... فقط تعالي.

لكنها ابتعدت وما اقتربت، ناداها بصوتٍ باك:

- أيا حبي فلتقتربي.

وفضّلت الابتعاد عنه.

فتح عينيه ليرى ماجداً جالساً قبالته، هبّ واقفاً بجواره ينظر إلى نصفه الرجولي الآخر. قال له بصوتٍ مرتجف:

- خذني إليها.
- لا تستطيع.
- بلى... أستطيع.
- ابقي الآن، وسآخذك إليها لاحقاً.
- خذني إليها الآن... أريد أن أقبّل جبهتها وأبكي.
- المدينة التي يطالها الخراب لا تشرق كما كانت، وإن عادت يبقى فيها جزء محطّم لا نراه.

- الاعتذار يصلح ما أفسدته الأيام، الندم يا ولدي وعبراته هو طريق النجاة الوحيد.
- وما فائدة إخبارها بحسرتك وقد كانت تتوق لسماعها في ماضٍ مضى وانتهى، لتأتِ الآن وتقلها هنا بعد أن خبت فيها لهفة الإنصات.
- أخشى أن تموت الآن دون أن أسمع منها كلمة عفو واحدة.
- هي لم تمت الآن، ماتت منذ زمنٍ بعيد، كان يجتاحها الموت كل يوم، كانت تموت في الساعات التي نجلس فيها بمفردنا متجاهلين وجودها، في ساعات ضحكنا وعدم اهتمامنا بها، ماتت حين نضبت دموعها واستعانت بصمتٍ لا قيمة له. في كل هذه الأوقات كانت تحتضر وحدها ولم ندرك ذلك.
- لم أشعر بصراخ روحها إلا في اللحظة الأخيرة.

تأوّه ماجد بألمٍ، ثم نظر إلى النافذة وكان المطر قد توقف، عقدت السماء هدنة قصيرة تخللتها ريح هوجاء تضرب النوافذ وكأنّ لها ثأراً منها، تأمّلها ماجد قليلاً ثم أضاف:

- أنا لستُ أقلّ حالاً منك، لقد جلدتها بعقوقي وبعدي عنها، هربت منها حين كانت بحاجتي، كتمت مشاعرها ودفنتها وهي على قيد الحياة، وظهرت فجأة حين صرخت.
- أخشى فقدانها فلم أكن رحيماً بها، كنت أعتقد أنها باقية صامدة، لم أتوقع أن النهاية في لحظة ستأتي، لذلك عمدتُ إلى إذلالها خشية هروبها مني، ولأشعرها أنها بحاجتي على الدوام.
- الموت يخيفنا ويتلاعب بنا، ما يؤلم ليس الموت فقط. بل الطريقة التي سيسرقها منا.
- لا تتحدث عن الموت، لا تطالب بالنهاية قبل فوات الأوان.
- أخشى أن تبتر حياتنا حينها ويُهدم بيت لم نرع حرمته، ولم نشعر بقيمته.
- خذني إليها.

كانت المسافة بينهما قصيرة جداً، موجودة في خريطة منسيّة في درج ذاكرة مغلقٍ بمفتاح الهزيمة.

اقترب منها الجميع، وجلسوا بجوارها صامتين ينظرون إلى صمتها.

مالك يفكر في كلمة أخيرة يلقيها على مسامعها، يبحث في قاموسه عن كلمة حب، عن شيء تأخذه معها زاداً في رحلة وحدتها.

أما رجاء فكانت خائفة من الاستيقاظ، تخشى أن تشرّع شراعها في الاتجاه الخاطئ، تخاف من أعاصير رحلتها، فلا تريد المجازفة بالإبحار إلى عالمه.

لم تنسَ أول ليلة قضتها معه، فقد قال "أوغوز أتاي" (النسيان أطول كلمة، لأنها تستغرق عمراً كاملاً) صمتها لم يكن مريحاً لهم، لكنه كان مريحاً لها، لأنها أفنت قلبها لتشعرهم بسعادة، تلك السعادة التي رسمتها من خيوط روحها، ومن ندوب قلبها صنعت لهم معطفاً للفرح.

ماجد كان يتلوى من اليأس لأنه يراها صامتة في لحظاتها الأخيرة، أهكذا تُرسم النهاية بهذا الهدوء؟ وماذا عن شتاء القلب القاسي ونار الأمان الغائب عنه؟ كانت أمانه من ويلات العبرات الصاخبة.

كانت إيلاف تنقل بصرها بين المريضة وزوجها، حين ظمئت نادته كي يفيض عليها من الحب، فلم يسكب غير الوهم في كأسها وأذاقها مرّ العلقم، فهربت بنارها وجحيمها لتستحمّ من خطيئة ارتكبتها، وأخرست أحرف الحبّ في حنجرتها، وأسكنت همساتها الناطقة باسمه.

قالت صفاء بصوتٍ عالٍ:

- لا تترددي في الاستيقاظ... كلنا بجوارك هنا... أتينا لاصطحابك معنا.

قال مالك:

- في لحظة غضب منها أشعلت فينا حرائق لا تخمد، ونخشى أن تكلّفها هذه اللحظة حياتها.

نظر الجميع إليها بصمت وهم يرقبون الساعة التي على الحائط بين الحين والآخر. الخامسة إلا ربعاً، الخامسة إلا عشر دقائق.

دقت الساعة معلنة الخامسة، خمس ساعات وهم قابعون هنا، أتوها من جميع أنحاء دمشق يتباكون على ذنوبٍ اقترفوها، وهي صامتة كعادتها، تعيش حياة ما اعتادتها، وتخطّ بيدها كلمة النهاية.

رمت رزان الدفتر من يدها، فقد أنهت ما جاء فيه من أمنيات وعتاب، لم تسردهما رجاء على أذن أحد من قبل. نظرت إلى الساعة فوجدتها الخامسة، باستطاعتها الذهاب إليها الآن، فمن المحتمل أن تفيق والدتها على وقع أقدامها حين تدلف إلى الغرفة. ولكن هنا سؤال يفيدنا، هل كانت ابنة بارة بها لتستيقظ أول ما تصل إليها؟ الوقت ليس في صالحها، ستكتشف لاحقاً قدرة والدتها على حبّ أشياء كثيرة، على حبّ شيء عميق وجوهري، يمثل قيماً لا مثيل لها.

ولكن الآن لا تريد التفكير بشيء، فقط ستلحق بركب هؤلاء، وتتوجه إليهم لتبكي على صدر والدتها مثلهم تماماً. ارتدت ثيابها على عجل وخرجت من الغرفة. تأملت آخر لحظة للحرب في هذا البيت، العلامة مازالت موجودة، دالة على صراخ أحدهم وغضبه، مازالت تتذكر الكأس الصغير الذي لا يذكره أحد في هذه الحرب الطاحنة، فهو ضحية كوالدتها، خسر نفسه حين هشّم النافذة، الكل أفاق على عويل ونشيج النافذة، ولا أحد منهم لمح الكأس الصغير لأنه كان قد تهشّم إلى ذراتٍ صغيرة، فامتزجت ذرّاته بذرات النافذة الكبيرة.

مسحت تلك الدمعة السخية، وخرجت مسرعة تبحث عن سيارة تأخذها إليهم، نباح الكلاب الضارة يصل إلى أذنيها من كلّ الحارات، أصمّت أذنيها، ومشت قليلاً إلى أن ركبت في سيارة أجرة، انطلقت بها قبل بزوغ الفجر إلى الجميع، فيما تبكي في قلبها صمت والدتها وابتعاد رزان عنها.

كانت تهرول نحو المستقبل، كانت تريد من الأيام أن تركض سريعاً كي تنطوي وتصبح ماضياً، كان هدفها أن تكبر بسرعة لتعلّم أمها الصراخ، المقاومة، الثورة، الرفض، كلمة لا. أما الآن فهي لم تكبر كثيراً، وتريد من الساعات أن تهدأ قليلاً كي تتأمل وجعها.

الأيام لم تترك لها مجالاً، ركضت بسرعة البرق لتجد نفسها تقرأ مذكرات والدتها، محرومة من الذهاب إليها، خائفة من نافذة مشوّهة، كانت تركض من أجل والدتها وهي الآن تبطئ من أجل والدتها.

نزلت دموعها وهي تفكر في هروبها من وجه والدتها، في تلك الساعة كانت تتمنى لو تنصفها، فهي أنثى مثلها، ويجب أن تتحد معها ضد ذكوريّ المنزل، لكنها فضلت الصمت واختارت جانب والدها، لا تعرف لمَ ولا تريد التفكير في هذا الأمر.

وصلت السيارة إلى وجهتها، وركضت تصعد الأدراج الكثيرة بعد أن سألت عنها مكتب القبول. تنفست الصعداء بعد أن وصلت إلى الغرفة ودخلتها تلهث ركضاً، التمعت عيون الجميع حين لمحوها، وفي أذهانهم أسئلة عديدة لها، ولكنهم اختاروا الصمت عن الكلام، فلم ينبسوا ببنت شفة، وأفسحوا لها الطريق كي تحتضن جسداً ليس فيه روح تعانقها.

عانقت الجسد الموصول بالأجهزة الغبية، عانقتها وهي تبكي بنشيج يقطّع القلوب، عويلها ونحيبها وصل آذانهم فأبكاهم، ولم يصل إلى أذنها.

كانت تبكي وتقول:

- سامحيني.... سامحيني. اغفري ما تفوّه به اللسان، واعفي واصفحي.

وتبكي وتبكي والكل يبكي لبكائها، ينظرون إليها وإلى الساعة. اقتربت من الخامسة والنصف، ولا جديد يبشّر في هذه الغرفة الصغيرة.

اقتربت منه، وهو ما يزال قابعاً في صحراء الندم، تلوكه الحسرة وتحرقه شمس الندامة، قالت له بابتسامة بهية:

- هل أنا مرئيّة؟

نظر إليها باندهاش قرأته في عينيه.

- أتراني؟
- أجل.
- لماذا لم أكن مرئيّة في البيت البارد؟ لمَ لمْ يشعر بوجودي أحد؟

والكل الآن يتباكى في محرابي وأمام جسدي الضعيف.

صمت ولم يتفوه بحرف، فأردفت:

- اندفعتُ بقوة نحو الحب والأمان والاهتمام، لذلك كان ارتطامي بالخيبة مؤلماً، ما كان يجب أن أطلب أشياء من الصعب الحصول عليها، أشياء لا تُمنح ولا تُعطى.
- مازلت أقاوم الوقت كي أصل إليكِ، حتى هلك قلبي وتفتت مني.

- كم انتظرت؟ ست ساعات؟ أم خمس ساعات؟ هل قضيت اثنين وعشرين عاماً في وجعٍ كهذا الوجع؟ لماذا لم تتحمّل كما احتملتُ أنا؟ لماذا لم تصرخ كما فعلت أنا؟ لماذا صمتّ الآن وأخرسك الوجع عن كل حرفٍ تريد أن تحكيه لي؟

- وجوهنا مليئة بالوجوم بسببك، الحزن أسكتنا والندم أحرق روحنا.

- تلاشت رغبتي في العتاب.

- ستمضي هذه الأيام، وسنعود أحباباً.

- سنعود كالغرباء، أنت في طريقك، وأنا أتوسد ذكرياتي التي تقف في منتصف الطريق.

- ارحميني... أنا مرهق وكأنني اختزن الحزن في جعبتي منذ ألف عام.

- وهل رحمتني أنت؟

- أتيتك نادماً.

- لو لم يحدث ما حدث، ما كنت لغرفتي أتيت، وما كنت على ذنبك ندمت، وما كنت على أفعالك تكلمت.

اقتربت من الباب وفغرت فاهها من الدهشة، دقائق مرّت قبل أن تصرخ بفرحٍ:

- القفل به مفتاح.

ركض إليها لاهثاً، يتوكأ على عصا طويلة، وهرول إليها حافي القدمين إلى الباب المغلق، فُتح الباب وأشرقت الأرض بتوبةٍ مازالت تلوح في الآفاق. لكنها الآن صادقة. أعمى عينيه النور فأخفض بصره، وبعد دقائق كان النور قد تلاشى. ودخل أرضها، رآها تمشي، تجرّ ثوبها الأبيض خلفها، الذي كان قصيراً وأخضر، بشعرها الأسود الطويل ابتعدت فاقترب منها، ابتعدت أكثر فاقترب أكثر، ثم اقترب كثيراً فابتعدت كثيراً، ثم اختفت عن مرأى عينيه. كأنه لا وجود لها في هذا الكون الكبير. يبست الأشجار برحيلها وانهارت الأوراق الصفراء، تحوم حوله، تغزل فراقاً لا لقاء بعده.

لا يستطيع الآن إكمال الحلم وهي بطلته، لذلك كان عليه الرحيل إلى عالم لم يعد لها وجود فيه.

وأطلقت الأجهزة صفيراً عالياً، ركض ماجد منادياً الطبيب، هرول الطبيب إليه ينظر إلى الجهاز، فقد كان يرسم خطاً متعرجاً ثم مستقيماً، ثم بدأ يتقطع رويداً رويداً حتى انقطع فانقطعت عن عالمهم. الكل ينظر بقلق ويتمنى في سره ألا تكون النهاية الحاسمة. نظر الطبيب إلى الجميع، ثم جذب الغطاء ووضعه على وجهها. تمتم بكلمات الوداع القليلة، وغادر ببرود، فهو معتاد على مثل هذه النهايات، ولكنهم ما اعتادوها ولن يعتادوها أبداً.

كل كلمات الوداع منكّهة بنكهة الحنظل، ساعة الفراق مؤلمة، والموت أشدّ مرارةً من كل لحظات الفراق، كلّ فراق لا يعقبه لقاء، فهو موت بحكم حياة محتضر.

بكى الجميع وصرخ الجميع، وحدها رزان كانت متشبّثة بها رافضة تركها، تريد عناقها العناق الأخير، لن تصدّق أبداً أنها رحلت عن عالمهم، ألا يمكن أن يكون خطأً طبياً وتصحو بعد ذلك، ولكنها لا تستجيب لهم أبداً، ينهشها سؤال واحد: أين أخطأت لتتكوّم خيباتها، ولم ترحل قبل أن تأخذها معها، لم يكن هناك غبار على حزنها، لذلك لم يره أحد ولم يلمحه أحد.

خذلتهم جميعاً كما خذلوها من قبل، خذلتهم عند إعلان توبتهم، فصمتت بعدها صمتاً نهائياً، عاشت عمرها في خيبة سجين سمحوا له بزيارة واحدة بعد أعوام من السجن، فلم يزره أحد.

الساعة السادسة تماماً حين دقت وأعلنت ذلك، كان الطبيب يعلن توقيت الوفاة، ست ساعات من الوقوف إلى جانبها، يبكون اعترافاتهم لها، بكوا كثيراً وفات الأوان على النطق بكلماتٍ لن تصل إليها.

أشاحت صفاء وجهها عنها بدمعٍ يغسله، فهي تدرك أن هذا المشهد لن يغادر ذاكرتها أبداً.

جلس الجميع حولها في غرفتها للمرة الأخيرة بدموع تكوي القلوب، قلوبهم تتقطع حزناً ودموعهم شاهدة على أحزانهم.

مرت ساعة نحو الموت ببطئها وبجحيمها، وكأن الكون جميعه يبكي لعبراتهم الصاخبة كعبرات الليلة المجنونة. ساد الظلام في وجوههم كما أشرقت الأرض بنور لم يصل إلى أفئدتهم.

جاءتهم ممرضة بعد ساعة من الوفاة، تمشي على استحياء تطلب من مالك مرافقتها، ظن في البداية أن ذلك لتسجيل واقعة الوفاة، أو لدفع رسوم المشفى فسار خلفها دون أن يسألها إلى أين تمضي به، كأنه واقع تحت تأثير مخدر، كل ما في الحياة ما عاد يعنيه، أدخلته إلى غرفة أخرى في آخر الممر، غرفة صغيرة فيها سرير ينام فوقه رجلٌ في الخمسين من العمر، وجهه منتفخ من كدمات زرقاء وحمراء، رجله عليها جبيرة بيضاء. ألقى السلام على مالك المصدوم وهو يتساءل في سره: من هذا الشخص؟

صمت قليلاً الرجل الغريب وهو يتفرّس في مالك، يحاول قراءة تعابير وجهه، ثم أخفض بصره وعزّاه على مصابه الأليم، ثم قال بحروف الألم:

- أتدري من أنا؟
- ربما.
- ربما ماذا؟

- ربما تعرفني ولكن لا أعرفك.

- أهي أحجية؟

- لا طاقة لي للنقاش، إن أتيت بي إلى هنا لتلعب بأعصابي فقد وصلت إلى شخص غير مطلوب.

- لا تكن متسرّعاً، ودعني أكمل كلامي.

- وهل بدأت حتى تكمل.

- اجلس لنتكلّم.

جلس مالك على الكرسي المقابل له وقال:

- ما وراءك؟

- أنا من كانت معه زوجتك في السيارة، أو لنقل بعبارة أدق ومختصرة هي من كانت معي.

هبّ واقفاً يتلبّسه الغضب، وصاح:

- من أنت؟ تكلم... من تكون؟ ها.... أخبرني.

- اهدأ يا هذا... لم نكن وحدنا.

- وهل هناك رجل غيرك.

- عار عليك هذا الكلام يا رجل، هي زوجتك وأنت أعرف الناس بأخلاقها، هي الآن تواجه خالقها، فلا يجوز الحديث عنها بكلامٍ غير لائق.

- أخبرني إذن من كان معك بدلاً من هذا الكلام الفارغ.

- كانت معنا زوجتي فهي صديقة زوجتك، جاءت إلى بيتنا في الساعة العاشرة والنصف، كانت متعبة منهارة، جلستْ وزوجتي وبدأتا بحديثٍ طال وانتهى بنومهما، لكنها أفاقت في الساعة الثانية عشرة إلا ربعاً تبكي أن هناك مكروهاً سيصيبك، لم أكن نمت بعد وكانت تتوسل إلي كي آخذها إلى بيتها، وافقتُ بعد إلحاحها وتوسلاتها وذهبت زوجتي معنا.

- وأين زوجتك الآن؟

- لقد ماتت فوراً.

- البقاء لله، لماذا لم يخبرني ذاك الطبيب الغبي أنكما لم تكونا وحدكما.

- لأن زوجتي نقلوها إلى ثلاجة المشفى فوراً، فلم يرها الطبيب الذي أسعف زوجتك.

نظر إلى وجهه المتورّم وقدمه المجبّرة، ثم نظر إلى الأرض في خجلٍ.

- كان ما حلمت به واقعاً، لم يكن الحلم عنكَ، وكأنها سارعت نحو حتفها بقدميها.

ها هو بعد إعلان توبته يحمل وزراً جديداً، لقد ذبحها في حياته وها هو يذبحها بعد وفاتها.

اعتذر للرجل نيابة عن زوجته، ومشى يجرّ ورائه خطيئة جديدة، لا يدري كيف ستأتيه لتعفو عنه.

مشى في الممر الطويل حتى وصل باب المشفى، تأمل السماء المكفهرة، وأدرك أخيراً جنون السماء، لقد كان فبراير صاخباً لا يريد أن تمضي الليلة قبل أن يأخذها معه.

نظر إلى تقويم هاتفه، إنه صباح ٢٩ فبراير، حتى في موتها مظلومة، لن تأتيها ذكرى تأبينها إلا مرّة كل أربع سنوات.

ظلمتها الحياة، وها قد ظلمها الموت حين سرقها في يومٍ لن يتكرر قبل أربع سنوات.

تمت في

٢٠٢١/٩/٢٢

من رحم الألم يولد الإبداع.